

أبو سمبل

تأليف : محمد فتحي عوض الله

بين الصخر والإنسان

تقديم الدكتور حسين فوزي



أبو سمبل

بين الصخر والإنسان

أبو سمبل

بين الصخر والإنسان

تأليف

محمد فتحي عوض الله



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. ع. م.

تقــديم

هذا كتاب قيم جمع بين العلم والفن والتاريخ فى ديباجة أدبية جميلة .

إلى أنه درس حضارى ما أحوجنا إليه فى وقت نكاد نتنكر فيه لتاريخنا الأصيل ، وننسى أننا من المصادر الأولى لحضارة البشر.

الدكتور حسين فوزى

المؤلف

- تخرج فى علوم القاهرة ١٩٥٦ .
- دبلوم عال فى الجيولوجيا التطبيقية .
- ماجستير فى الجيوكيمياء .
- باحث بالبحوث الجيولوجية والتعدينية .
- شارك فى البحوث التى تمت على الخامات المعدنية والدراسات الجيولوجية فى مصر .
- قدم للمكتبة العربية مايلى :

١ - كيمائية الفحم فى عيون موسى بسيناء مع آخرين (بالإنجليزية)

٢ - قصة الحديد فى مصر (بالعربية)

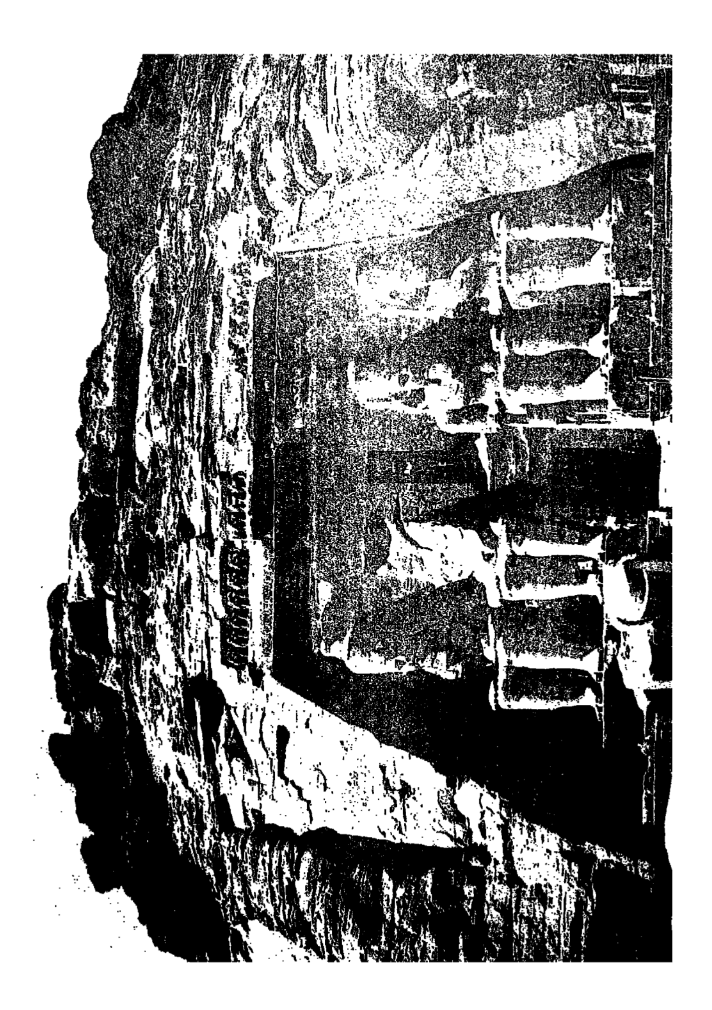
٣ - قصة الفحم فى مصر (بالعربية)

٤ - المصادر الطبيعية للطاقة . . . (بالعربية) . ويصدر له قريبا .

٥ - عن النيازك والشهب . (بالعربية)

٦ - من الظواهر الطبيعية فى الصحارى المصرية (بالعربية) .

المحتويات



« أبو سمبل » كما كان وكما تركه رمسيس الثانى ، وقبل نقله من موقعه القديم إلى موقع آخر فى سبتمبر ١٩٦٨

المقدمة

كان للعمل الرائع الذى شاركت فيه الجهود الدولية من خلال منظمة اليونسكو ، والذى أسفر عن إنقاذ آثار النوبة ، وقع جميل على نفوس هؤلاء الذين يقدرون التراث الإنسانى حق قدره على مر العصور . وآثار النوبة بما فيها من روعة وجلال ومقدرة فنية ، أضحت اليوم ملكاً للإنسانية بعامة ، بقدر ما هى ملك لمصر بخاصة . فهى آثار تدل على حضارة ومدنية . . والحضارة والمدنية فى تاريخ الإنسانية محطات للآمال فى التقدم ، ودفعات دائماً إلى أمام . ولعل التعبير الجميل الذى ورد على لسان مدير هيئة اليونسكو ، « ر. ماهو » ، فى الاحتفالات بإتمام نقل معبدى أبوسمبل فى سبتمبر ١٩٦٨ ، يفصح عن هذا المعنى ويبين . . . قال : « إن المدنيات أشبه شىء بواحات صغيرة فى تاريخ البربرية الطويل . الذى يتكون منه عمر الإنسانية » .

وأية حضارة هنا وأية مدنية ؟ ! إنها حضارة الفراعين ، ومدنية المصريين، الأقدمين . أولى الحضارات وأسها على أكثر الأقوال وأرجحها.

والعمل الملحمى هنا .. هو نقل معبدى«أبو سمبل»، وتماثيل رمسيس وآلهته وزوجته ، على واجهتيهما . ورمسيس ملكاً ، كان عظيماً . . ورمسيس زوجاً ، كان أيضاً عظيماً . . ولقد خلد نفسه وخلد حبه لزوجته

فى أثر عظيم – معبد أبو سمبل * جعل شمبليون – العلامة الفرنسى فى الآثار المصرية – عند رؤيته يقول: « إننا أقزام أمام هؤلاء العمالقة». وعن معبد أبو سمبل هذا ، بين الصخر والإنسان ،لنا هذه المسيرة . . .

– لقد نحت رمسيس الثانى معبديه هذين له ولزوجه – فى جبل صنديد أصم من الحجر الرملى النوبى . . ولقد تناولنا فى بحثنا هذا ، التعريف بنوعية هذا الصخر وكيفية تكوينه وسر تسميته . . وتلك أولى الخطى فى المسيرة

– كذلك فإن حضارة رمسيس ومدنيته امتداد لحضارة فرعونية طالت ، وما كانت لتكون ، لو لم يكن نهر النيل الخالد ، الذى وهب مصر خصبها ، فكانت الزراعة . وساند الزراعة ونماها ، فكانت الوفرة فى الإنتاج سبيلا للحضارة والمدنية . ولقد تناولنا فى بحثنا هذا التعريف بالنهر وتكوينه الأول، ثم الحالى . . وهكذا بعد أن تكون الصخر ، جرى النهر ، وتلك ثانية الخطى فى المسيرة .

---

* للدكتور حسين فوزى رأى فى التسمية ، فهو يقول :

هناك : أصلان : الأول من « أب » : أبو على وأبو عفان إلى آخره .

والثانى من آبا أى القديس . ومنها أبو قير . والأبوة هنا ممنوعة من الصرف . فلا نقول: دخلت « أبا » قير عصرا . وأبوقير ، أى القديس فيروس ، هو « سان سير» عند الفرنسيين . أما التفسير من لغة مصر القديمة (بوسمبل) فغير مقنع .

ـــ سادت الحضارة الفرعونية زماناً طويلا ، ولكن ليس هناك أطول من الزمان ذاته ، وأبقى . . ومن ثم فلكل شيء نهاية . . وبعدأن سادت تلك الحضارة ، بادت . ولكن ظلت معالمها بارزة وآثارها باقية ، وإن يكن سرها قد اختفى وراء تتابع الأيام ، ومر العشى ، وتكاثف أحداث التاريخ . . وما كان ليكشف هذا السر ، لولا أن عرفت أسرار لغة هؤلاء القوم ، وفكت طلاسم نقوشهم وكتاباتهم . . ولقد تناولنا فى بحثنا هذا ، الإلمام بالأسباب الحضارية التى أدت نهاية وغاية ، إلى ذاك التطور الحضارى المتمدن الذى نلمسه فى عملنا الملحمى الحالى — نقل معابد رمسيس الثانى فى النوبة . ولكن لاننسى وقد تفتحت لنا صحائف الماضى بائحة بأسرارها ، أن كان السبيل إلى ذلك ما نطق به الحجر . . والحجر ، حجر رشيد . . وهكذا بعد أن تكون الصخر ، وجرى النهر نطق الحجر ، وتلك ثالثة الخطى فى المسيرة . .

ـــ عرفنا أسرار الجدود ، وفاخرنا الزمان بمجدهم وما خلفوا من مخلفات عز على الزمان منالها ، وبان للعالم أن لناقى ماض من الزمان حضارة . وأننا نمت للمدنية بأسباب وأسباب ، بل هى وليدة أرضنا ، ومن فعل أسلافنا . . ولكن الزمان حول قلب . . وإن تكن شمسها توارت عنا بعض حين ، فإنا اليوم لها . . وعلى مشارف الطريق ، ها نحن نشمر عن السواعد ، ونبنى سدنا العالى . . أموعد مع القدر ؟ ! نعم ، هو ذاك . . موعد لشعبنا وجيلنا . ولكنه كان أيضاً ، موعداً مع القدر

لرمسيس الثانى ومعبديه فى «أبوسمبل» ، لينقلا إلى موقع جديد، وتود يا رمسيس تملأ سمع الدنيا وبصرها . . وإن لم يكن هذا موعداً لك مع القدر ، فماذا يكون؟ ؟ ! وهكذا ، بعد أن تكون الصخر ، وجرى النهر ، ونطق الحجر . . كان موعد مع القدر ، وتلك رابعة الخطى فى المسيرة . .

عزيزى القارئ :

تلك مسيرتنا ، وتلك علامات أربع على سبيلها ، أرجو أن أكون قد وفقت فى اصطحابك معى – وعنصر التشويق ثالث ثلاثة – عبر رحلة تمتد طويلا ما بين مئة مليون سنة تقريباً ، مضت ، حين تكوّن الصخر الذى اتخذ رمسيس الثانى وزوجته معبديهما فى جوفه كمغارتين رهيبتين ، وبين عامنا ١٩٦٨ ، حيث عملت المناشير واستخدمت الوسائل التكنولوجية التى تمخض عنها القرن العشرون ، فى تقطيع أوصال الجبل ، وجز الصخر ، ونقله من مكان ترسيبه ومعه المعبدان ، إلى موقع آخر جديد . .

ذاك هدفى ، وتلك سبيلى ، وعلى الله قصد السبيل.

الدقى فى نوفبر ١٩٦٨ محمد فتحى عوض الله

تكون الصخر

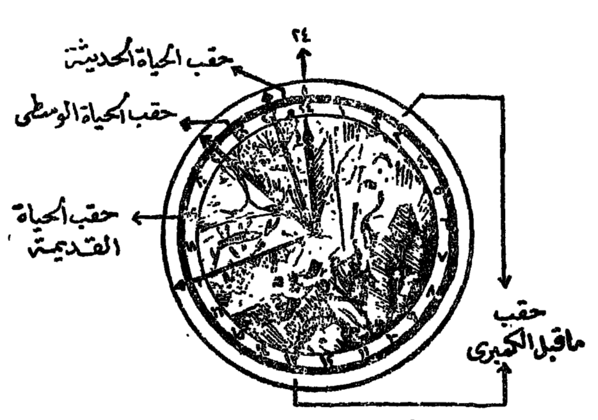
يسود اعتقاد خاطئ مؤداه أن الصحارى المصرية ليست إلا متسعات من رمل ذهبي اللون ، يمتد من النيل إلى المحيط من ناحية ، ومنه إلى البحر الأحمر من الناحية الأخرى . وتستند هذه الفكرة إلى وجود رمال كثيرة تملأ المنخفضات المحمية من الرياح وأثرها ، فى مرتفعات الصحراء الغربية ، حيث تحف هذه المرتفعات الرملية بوادى النيل . ولكن ، لقد قدر الجزء الذى تغطيه الرمال فى صحراء ليبيا أو الصحراء المصرية الغربية ، بما لايزيد عن تسع مساحتها . فإذا أدخلنا فى اعتبارنا المناطق الجبلية ، التى تحف بالبحر الأحمر ، صارت نسبة الجزء المغطى بالرمال إلى بقية التراب المصرى ، جزءاً صغيراً جداً ، ويتبقى بعد ذلك هضاب من الحجر الجيرى شاسعة الاتساع ، وجبال وكتل من الجرانيت والصخور النارية ، شاهقة الارتفاع ، ومنخفضات نسبية من الحجر الرملى . ومهما كبرت تلك المساحات وامتدت ، وكان لها أهمية جيولوجية بحتة فإنها تعتبر ثانوية إذا ما قورنت بمنخفض وادى النيل الطويل الضيق ، والذى ارتبط اسمه باسم أقدم المدنيات فى العالم . وبدراسة هذا المجرى المائى الهام ، أو النهر العظيم من الشمال إلى الجنوب فإنه يكشف عن سلسلة من التباين ذات دلالة نافعة ، ولنقترب من هذا النهر فى سبيلنا إلى الجنوب ، لنرى عن قرب مجراه . .

نجد أن ا.ر يضيق ما بين إدفو وأسوان ويقل النطاق المتزرع حتى يضحى شقة ضيقة تحف بمجرى النهر . وللتركيب العام هنا طبيعة خاصة، فظروفها تشبه الظروف التى أدت إلى تكوين الشلالات فى الجنوب فنجد أن النيل مثلا عند منطقة السلسلة وعند منطقة سلوة ، قد نحت حاجزاً من الحجر الرملى كان فى وقت مضى يحجز مياه النيل فى شكل بحيرات عظيمة . ثم عند أسوان وجنوبيها تكون صخور الجرانيت والصخور النارية الأخرى ، حاجز الشلال الأول . ثم نجد شلالا بعد الآخر فى المجارى الضيقة ، بين الجزر الصغيرة التى تعوق إلى حد ما مجرى النهر . وهناك يضيق مجرى النهر إلى أقل من ١٥٠ متراً بعد أن كان يبلغ عرض النيل الهادئ كيلومتراً ونصف الكيلومتر عند الخرطوم .

ويقع الوادى النوبى إلى الجنوب من الشلالات ، وتحف به من الشرق جروف شاهقة، ترتفع دفعة واحدة عند حافة الماء. أما فى الغرب فالجروف منخفضة عادة وكثيراً ما تكون منفصلة فى شكل تلال منعزلة وتمتلئ كل تجاويفها برمل ذهبى أصفر . وتقل هناك المنطقة المتزرعة حتى تعود شقة ضيقة ـــ ممتدة بين النهر والجرف ، ولكنها كانت آهلة بالسكان قبل بناء السد العالى .

وينتهى ذلك الوادى عند منطقة وادى حلفا ، إلى الجنوب قليلا من الحدود المصرية السودانية . وتوجد الشلالات فى مجرى النهر حيث

رسم توضيحي يبين بالمقارنة المدى الزمني لامتداد الحقب أو العصور الجيولوجية التي توصل العلماء لها باجتهاداتهم تقديرا لعمر الأرض، منذ كانت الى اليوم



لو افترضنا أن عمر الأرض هو ٢٤ ساعة، فإن الرسم يوضح الساعة بوحداتها الزمنية المتفق عليها. ويكون القياس على ذلك كالآتي

أقدم العصور الجيولوجية المعروفة (حقب ما قبل الكمبرى) استمر نحو ١٧ ساعة.

حقب الحياة القديمة استمر نحو ٤ ساعة.

حقب الحياة الوسطى استمر نحو ٢ ساعة.

حقب الحياة الحديثة استمر نحو ١ ساعة.

ويكون على ذلك ظهور الإنسان في هذه الحياة طبقا لتلك التقديرات والحسابات - لا يعدو الخمس دقائق الأخيرة :

توجد صخور الجرانيت، على حين يهدأ النهر وتنبسط مياهه وتنتظم، حيث يكون مروره وسط مساحات من الحجر الرملى النوبى المنتظم التآكل لتجانس حبيباته . وهذا هو الحال عند أقدام معبد أبوسمبل ٥

والحجر الرملى هذا ، ينتشر فى أرض مصر حيث يوجد نطاق كبير منه جنوبى خط عرض ٢٦° فى صحـــارى مصـــر بعامـــة ، وجنوبى مناطق الحجر الجيرى الواسعة . وينتشر الحجر الرملى لمسافات بعيدة إلى الجنوب الغربى وإلى الجنوب فى السودان كذلك . كما أنه يكون قاع الواحات الثلاث الهامة ، البحرية والخارجة والداخلة . ولكون الحجر الرملى فى العادة مفككك الحبيبات نوعاً ما ، فهو معرض بنوع خاص للتحات بالريح والماء ، وغالباً ما يصعب على الإنسان أن يقرر أى هذين العاملين أكثر أثراً فيه .

وتعتبر هضاب الحجر الرملى فى الصحراء الشرقية الجنوبية محددة تماماً ، وخطوط صرف مياه الأمطار الساقطة فوقها والهابطة إليها من تلال البحر الأحمر ، تمر مروراً مستعرضاً فى اتجاه النيل ، وفى وديان ضيقة عميقة . وتختلف هذه عن تلك التى فى المناطق الجيرية ، لعدم وجود الأرفف أو المدرجات الصخرية بالمرة فى الوديان . ولذلك فإن الطرق متعددة وسهلة من نهر النيل وشرقاً حتى جبال البحر الأحمر ، ابتداء من قنا وإلى الجنوب حيث يسود الحجر الرملى .

ومن أشهر الخواص ، مسامية الحجر الرملى . وهذه الخاصية تمكنه

من أن يمتص مقادير كبيرة من المطر الذى يسقط فى الجنوب . ثم إن هذا الماء يأخذ طريقه تدريجاً تحت سطح الأرض منحدراً نحو الواحات ، والأجزاء السفلى من وادى النيل . وهى وجهة نظر لم يزل الجدل العلمى بصددها على أشده . ويفقد نهر النيل كثيراً من مياهه بسبب مسامية الحجر الرملى النوبى على طول مجراه ، من شمال السودان حتى بلاد النوبة . ولكن هذا الجزء المفقود من المياه يعود للنيل فيما بعد عندما يقل منسوب المياه فيه ، وبذلك تعتبر الأحجار الرملية النوبية خزانات طبيعية . ولكن نعود فنؤكد ، أن صخور الحجر الرملى النوبى لذلك تعتبر أقل صلابة نسبياً من الصخور الجرانيتية وربما كان ذلك لكثرة المسامية فى الأولى وقلتها فى الثانية . وغالباً ما ينتج عن تأثير المطر والرياح فى الحجر الرملى النوبى الذى اتخذت فيه معابد أبو سمبل ، الآتى :

١ — سهول أو منخفضات فسيحة .

٢ — وديان كبيرة لا تقطعها درجات صخرية .

٣ — وديان صغيرة وعرة على امتداد الفواصل .

وقبل أن نستطرد إلى دراسة وافية لصخور الأحجار الرملية النوبية التى بنيت فيها معابد رمسيس الستة بالنوبة، نود لو استعرضنا باختصار ، التكوينات الجيولوجية التى تشكل التراب الوطنى فى مصر ، والذى تعتبر هذه الأحجار أحد تكويناته . .

* * *

تحتل مصر الجزء الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا . ويكون جزؤها الشرقى – المكون من سلاسل جبال البحر الأحمر وجنوب شبه جزيرة سيناء – جزءاً من الكتلة العربية النوبية القديمة Arabo - Nubian massif – صخور نارية جرانيتية ومتحولة – التى تمتد شرقاً عبر البحر الأحمر وخليج العقبة إلى شبه الجزيرة العربية ، وجنوباً إلى السودان والصومال . كما تظهر بقايا هذه الكتلة عند وادى النيل فى أسوان والشلالات ، وعند جبل العوينات فى أقصى جنوب غرب مصر ، وفى أماكن متفرقة أخرى بجنوب الصحراء الغربية .

وتعد الكتلة العربية النوبية – صخور نارية جرانيتية ومتحولة قديمة – وحدة تركيبية كبيرة الامتداد، ظلت منذ أقدم الأزمنة مكاناً للترسيب، ثم الارتفاع ، نتيجة حركات وتقلصات أرضية عنيفة متعاقبة ، ثم مسرحاً للنشاط البركانى ولعوامل التعرية المختلفة حتى تحولت معظم صخورها ، وثبتت كتلتها ، واستوت فى مسطح عظيم غطت أطرافه بحور متعددة ، تركت وراءها وعلى حافة هذه الكتلة غطاء من الرواسب المختلفة الأعمار التى تكون بقاياها اليوم الجزء الأكبر من سطح مصر .

أما هـــذا الجزء من أرض مصر المغطى بالصخور الرسوبية والذى يحد النواة العربية النوبية ، فينقسم تركيبياً إلى ثلاثة أقسام أساسية ، لها خواص تركيبية متباينة ، هى فى الواقع تعبير لفعل الحركات

الأرضية على كل منها . وسنتكلم هنا عن كل من تلك الأقسام بشيء من التفصيل ، الذى يلائم هذه الخلاصة :

الكتلة العربية النوبية : Arabo - Nubian massif

تحتل الكتلة العربية النوبية حوالى ١٠٪ من سطح مصر . وتتكون من صخور نارية ومتحولة ، وأخرى رسوبية ، لم يتم بعد تحولها الكامل ، وتعتبر من أقدم صخور مصر ، وليس بأى منها آثار حفريات . كما أن الكثير منها قد تداخل بعضه مع بعض بدرجة تجعل معرفة العلاقات الستراتجرافية لطبقاته — أى مضاهاة الطبقات ببعضها — أمراً عسيراً . ولكن يبدو أن صخور هذه الكتلة قد تكونت خلال تطور دورة أوروجينية (Orogenic cycle) — حركة أرضية — بدأت بتراكمات هائلة من الرواسب فى حوض جيوسينكلينا لى عظيم — انخفاض فى الأرض — تداخلت فيه جدد وطفوح وأجسام قاعدية وتحت قاعدية كبيرة — مواد متصاعدة من باطن الأرض المنصهر — ثم أخذ هذا الحوض فى الانخفاض المستمر نتيجة تجمع هذه الرواسب ، على حين تأثرت أطرافه العليا بضغوط جانبية عظيمة ، كونت ثنيات كبيرة . أما قاع الحوض ، فتحولت صخوره تحت درجات الحرارة الكبرى إلى درجات متفاوتة من التحول والجرنتة — تكوين صخور الجرانيت — فتكونت تحت هذه الظروف صخور الشست والنيس ومختلف أنواع الصخور الهورنبلدية والجرانيت الرمادى

والأحمر – وقد ظهرت هذه الصخور بعد ذلك على سطح الأرض نتيجة حركات أرضية عنيفة انتابت المنطقة. وهى تغطى اليوم مساحات شاسعة من سلاسل جبال البحر الأحمر وجنوب سيناء .

٢ – الرصيف الثابت : (Stableshelf)

يغطى الرصيف الثابت حزاماً طويلا من أرض مصر . إذ يمتد حول الكتلة العربية النوبية ، من سلاسل جبال البحر الأحمر وغربا حتى الحدود الليبية . كما يغطى منتصف سيناء . ويتميز هذا الرصيف بأنه مغطى بغطاء رفيع من الرواسب شبه القارية أو الضحلة أو فوق القارية (Epicontenental) . ويتكون العمود الستراتجرافى – الذى يبين تتابع الطبقات – فى هذا الحزام عموماً ، من رواسب رملية فى جزئه السفلى ، تنتمى إلى حجر النوبة الرملى . وهذه وحدة صخرية واسعة الامتداد فى جنوب مصر . وسيأتى الحديث عنها فيما بعد بالتفصيل . . . ثم يستكمل الرصيف الثابت برواسب بحرية ضحلة فى جزئه العلوى تنتمى إلى المد البحرى لعصرى الكريتاسى – الطباشيرى – الأعلى ، والثلاثى – الترياسى – الأسفل * . ويزداد سمك الرصيف الثابت هذا ، كلما ابتعدنا عن الكتلة العربية النوبية أو صخور الأساس فى أرض مصر . وبالرغم من أنه من العسير تقدير سمك متفق عليه لرواسب

* انظر العمود الجيولوجى بالملحق الثانى فى آخر الكتاب ص : ١٣٧

الرصيف الثابت، لأن قاعدته غير ظاهرة ، ولم يكن فى الإمكان التوصل إليها فى أماكن كثيرة ، إلا أنه يمكن القول إن سمك هذا العمود الترسيبي ، هو فى حدود ٣٥٠ – ٤٠٠ متر بجوار الكتلة العربية النوبية ، ثم يتزايد بعيداً عنها حتى يصل إلى ١١٠٠ متر فى الواحة الخارجة مثلا حيث أمكن حساب سمك الرواسب كاملا ، عندما وصلت الآبار التى حفرت حديثاً فى هذه الواحة إلى صخور القاعدة النارية والمتحولة . ويستمر سمك العمود الرسوبى هذا فى الازدياد إلى الشمال ، حيث يصل إلى ٢٥٠٠ متر فى الواحة البحرية أو أبو حمث فى منتصف سيناء ، بعيداً عن الكتلة العربية النوبية ، وعلى الحدود الشمالية للرصيف الثابت. معنى ذلك ، أن كميات الرواسب فوق صخور الأساس فى مصر ، تزداد شمالا ، بما يوحى بكثرة الغزو البحرى لأرض مصر . ومع طغيان الماء فوقها ، يحدث الترسيب ويزداد سمك العمود الرسوبى .

وتتميز الرواسب التى تكون الرصيف الثابت ، بأنها تنتمى على الأغلب ، إلى رواسب عصرى الكريتاسى الأعلى والثلاثى الأسفل — وهما عصرا أقصى امتداد للبحر الأبيض القديم على أرض مصر . كما تتميز هذه الرواسب بامتداد وحداتها الصخرية التى تنتمى إليها ، امتداداً واسعاً ومتناسقاً ، حتى ليمكن تتبع هذه الوحدات الصخرية على طول الحزام أو الرصيف الثابت ، من منتصف سيناء حتى أقصى غرب مصر ، لمسافة تزيد على الألف كيلومتر .

أما الجزء السفلى من هذه الرواسب فيتكون من رواسب رملية ذات امتداد جغرافى واسع على طول هذا الرصيف تنتمى إلى وحدة الصخور المعروفة باسم حجر النوبة الرملى . . وهى صخرة تتميز حبيباتها الرملية بحسن تصنيفها وباستدارتها التامة وبكثرة تطبقها الكاذب وببساطة تركيبها المعدنى. . ثم تتدرج صخور حجر النوبة الرملى فى أعلاها ، إلى أنواع أخرى من الصخور ، طفلية وغرينية مليئة بالحفريات وبقايا الحيوان القديمة . ويبدو من الامتداد الجغرافى لوحدتى صخور حجر النوبة الرملى وما فوقه من طفل متباين الألوان ، أن بحراً ضحلا واسع الامتداد قد غطى سطح مصر فى أواخر العصر الكريتاسى ، حيث ترسبت فيه صخور حجر النوبة الرملى ، ثم انحسر البحر تاركاً وراءه عدداً من البحيرات التى احتلت الأماكن الواطئة نسبيًّا ، والتى ترسبت فيها وحدة الطفل المتباين الألوان . . وهو إلى الشمال من بلاد النوبة .

معنى ذلك أن حجر النوبة الرملى . . يعد وحدة من الوحدات الصخرية التى تغطى أو تكون الرصيف الثابت . . وهو أول هذه الوحدات الصخرية على الإطلاق . ويظهر أكثر ما يظهر ، فى مناطق من أهمها بلاد النوبة .

* * *

٣ ــ تركيب السويس (منخفض السويس) *

نأتى بعد ذلك ، استكمالا للرحلة الجيولوجية الاستكشافية للتراب المصرى إلى ما يسمى بجيوسينكلينال السويس الفالق . وبرغم أن منطقة خليج السويس تقع أساساً فى وسط الحزام أو الرصيف الثابت من أرض مصر ، إلا أن هناك من الأدلة ما يثبت أن هذه المنطقة بالذات كانت منطقة هبوط مستمر ، منذ أقدم الأزمنة الجيولوجية ، مما أدى إلى أن تتكون فيها راوسب سميكة تنتمى إلى مختلف العصور الجيولوجية . وهذا الاختلاف يجعل منطقة السويس فريدة فى تركيبها ، حتى إنها لاتختلف فقط عن بقية الرصيف الثابت ، بل أيضاً عن أخدود البحر الأحمر الذى يكون جزءاً لايتجزأ من الخليج فى الوقت الحاضر ، إذ أن هذا البحر يعد حديث العهد نسبيًّا ، ونشأ أساساً فى منتصف العصر الثالث فقط . ولهذا فصلت هذه المنطقة بالذات إلى وحدة تركية مستقلة وأعطيت هذا الاسم .

* * *

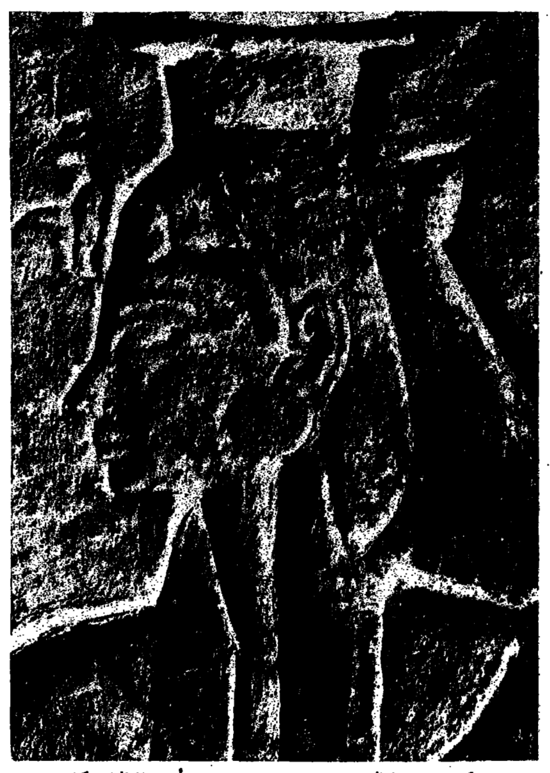
٤ ــ الرصيف غير الثابت : Unstable shelf

ومع نفس الاستمرار الجيولوجى ، لاستكشاف أرض مصر ، نصل أيضاً إلى ما يسمى بالرصيف غير الثابت . وهو تركيب يغطى الجزء

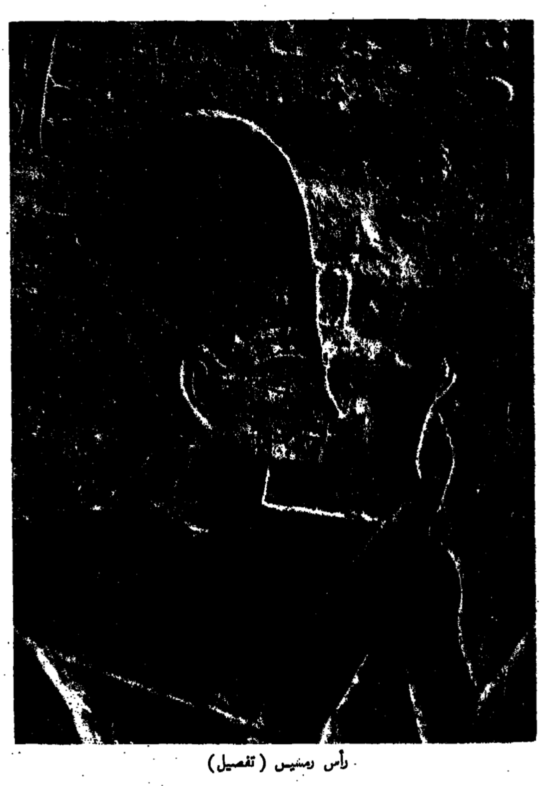
(*) جيوسينكلينال السويس الفالق : (Gulf of Suex Taphrogeocyncline) .

الشمالى من سطح مصر ، وتتميز رواسبه بسمكها الكبير ، وبتشوهها بواسطة حركات أرضية نشأت عن طريق ضغوط جانبية ، فكونت عدداً من الثنيات (Anticlines) الطويلة وغير المتماثلة التى فقدت فى خلال تكوينها ، أجزاء من مساحتها الأفقية . ولقد تغطى الرصيف غير الثابت خلال تاريخه الجيولوجى ، بمعظم الامتدادات البحرية الهامة منذ الحقب الباليوزوى ، أو حقب الحياة القديمة . ومعظم رواسبه جيرية ذات أصل كيميائى أو عضوى ، وإن كانت هناك رواسب فتاتية (detrital) فيه ، وخاصة فى جزئيه الأسفل والأعلى ، نظراً لتعرى الكتلة العربية النوبية والرصيف الثابت ، خلال زمان ترسيبها . وبالبداهة ، فإن هذه الرواسب تتزايد كلما اتجهنا شمالا . فهى مثلا فى الواحات البحرية تبلغ نحو ٢٦٤٠ متراً فوق الصخور الأساسية ، وهى فى مرسى مطروح تزيد آلافاً كثيرة من الأمتار عن ٤٥٧١ متراً ، حيث لم يبلغ الحفر إلا هذا المدى فقط ، ولا بد أن عدة آلاف أخرى من الأمتار كانت أمام حافرى هذه البئر قبل الوصول إلى الصخور الأساسية فى تلك المنطقة والتى توقفوا فيها عند صخور العصر الكريتاسى الأسفل فقط .

ولقد ظلت أرض مصر ، مجالا لانحسارات وامتدادات بحرية ، تغطيها على فترات متفاوتة من الزمان . . تمتد مياه البحر فترسب ، وتنحسر مياه البحر فتتعرى الصخور . . وهكذا دواليك ، حتى كان بحر الميوسين ، وبانحسار بحر الميوسين الأوسط بدأت أرض مصر تأخذ



كان رمسيس الثانى يحب زوجته « نفرتارى » ولقد أحب لها الخلود كما أحبه لنفسه ومن أجل ذلك بنى لها معبداً آخر بجوار معبده خصها به وأجلسها معه بين الآلهة حبا وإعزازا .



رأس رمسيس (تفصيل)

شكلها الحديث . ذلك بأن رواسب عصر البليوسين الذى أعقب عصر الميوسين ، لاتوجد إلا على صورة رواسب بحرية قليلة الامتداد حول حد الزراعة الحديث فى وادى النيل ، الذى تكون خلال الميوسين ثم امتد فيه ذراع بحرى خلال عصر البليوسين .. هذا الذراع البحرى أخذ ، فيما تعاقب من أيام ، يمتلئ بالرواسب ويتراجع أمام مياه النيل التى ردمته ، ثم شقت طريقها فيه خلال عصر البليستوسين ، مشكلة وادى النيل كما نعرفه اليوم، والذى قامت معابد الفراعنة الأقدمين .. على ضفافه عند النوبة ،ومن بينها معبد أبو سمبل وبقية معابد رمسيس الستة .

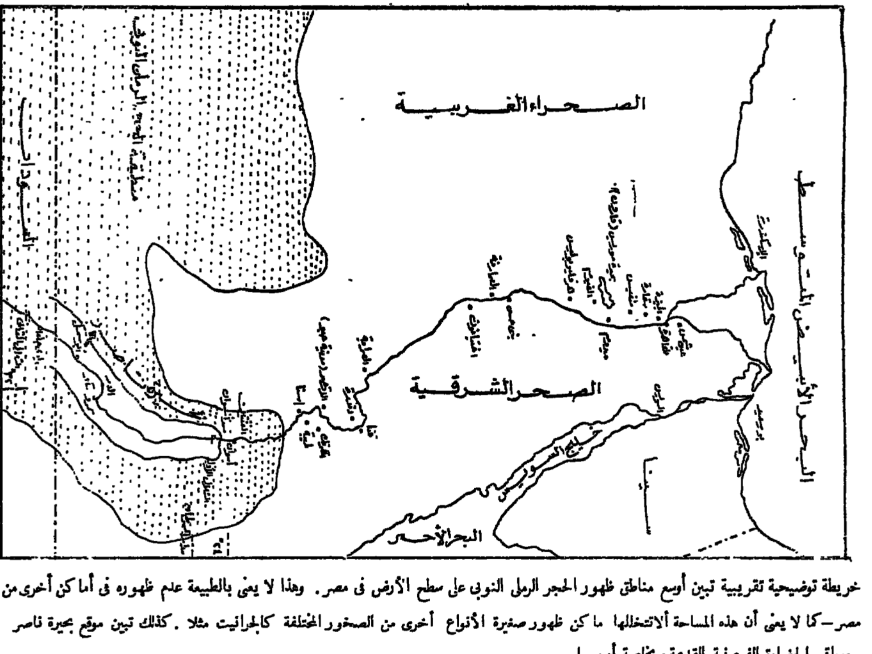
من كل ما فات من تشكيلات وتركيبات صخرية فى التراب المصرى ، يشد انتباهنا فى صدد بحثنا هذا ،تلك الوحدة المسماة بالحجر الرملى النوبى .

حجر النوبة الرملى :

وتلك كما ذكر من قبل وحدة صخرية مكونة من طبقات متعددة من الحجر الرملى الجيد التصنيف المتوسط الخشونة ، ذى الألوان المتعددة وهو يميل غالباً إلى اللون البنى . وتغطى صخور الحجر الرملى هذه ، بلاد النوبة وجنوب مصر ، وتتخلله بعض طبقات الطفل وما يسمى بالكوارتزيت . وكلما اتجهنا شمالا نجد أن صخور الحجر الرملى النوبى تتدرج ، مغطاة من أعلاها بمجموعة من صخور طفلية وغرينية متباينة الألوان ، وبها القليل من الحفريات التى تبين انتماء هذه الوحدة إلى العصر الكريتاسى أو الطباشيرى . وتمثل وحدة حجر النوبة الرملى ، الرواسب البحرية

السفلى للمد البحرى الذى غطى مصر فى أواخر العصر الطباشيرى . ويتراوح سمك هذه الوحدة من مكان إلى مكان . وهو فى حدود من ٣٥٠ إلى ٤٠٠ متر فى منطقة بلاد النوبة حيث يقبع معبد أبو سمبل سواء قبل انتقاله أو بعدما انتقل . ولحجر النوبة الرملى شهرة خاصة ، فقد حفر رمسيس الثانى ، الكثير من معابده بداخله ، مثل معابد أبوسمبل والدر والسبوع وغيرها . كما اتخذ منه أحجاراً وفتح فيه المحاجر فى جبل السلسلة شمال كوم أمبو .

وتوجد صخور الحجر الرملى النوبى واقعة فوق الصخور الجرانيتية ، التى يرجع عمرها إلى أبعد مما قبل حقب الحياة القديمة أو ما يسميه علماء الجيولوجيا أو طبقات الأرض بزمن ما قبل الكمبرى . وتميل فى غير حدة ، خطوط الطبقات فى ذلك الصخر إلى الشمال فى بعض الأماكن، إلا أنها فى أماكن أخرى ، تكون أفقية تماماً . ولقد وجد أن تلك الصخور الرملية النوبية ، إنما تقع على سطح غير منتظم للصخور النارية والمتحولة ، التى تشكل قاعدتها السفلى. وليست المنطقة من بلاد النوبة حتى جنوبى أسوان ، مغطاة تماماً بالأحجار الرملية النوبية ، ولكننا نجد هنا وهناك فى أماكن متفرقة ، ظهور ارتفاعات بارزة للصخور الجرانيتية والمتحولة فوق السطح . كما أن هناك شواهد على أن سطح الصخور النارية والمتحولة ، التى يرقد فوقها الحجر الرملى النوبى ، قد تعرضت يوماً ما فى الماضى البعيد ، وقبل أن يحدث ترسيب الأحجار



خريطة توضيحية تقريبية تبين أوسع مناطق ظهور الحجر الرملى النوبى على سطح الأرض فى مصر. وهذا لا يعنى بالطبيعة عدم ظهوره فى أماكن أخرى من مصر — كما لا يعنى أن هذه المساحة ألا تتخللها أماكن ظهور صغيرة لأنواع أخرى من الصخور المختلفة كالجرانيت مثلا. كذلك تبين موقع بحيرة ناصر ومواقع الحضارة الفرعونية القديمة وبخاصة أبوسمبل.

الرملية فوقها ، لعوامل نحت وتعرية أو تجوية ، لزمان طال كثيراً قبل أن تترسب سلسلة الصخور الرملية النوبية هذه . ويميز المتخصصون سلسلة صخور الحجر الرملى النوبى إلى مجموعات ، منها المجموعة العليا والمتوسطة والسفلى . ولكل منها عندهم ، مميزات وصفات خاصة ، وإن تكن جميعاً تشترك فى الصفات العامة التى تجعل منها أحجاراً رملية نوبية .

* * *

ولكن ما هى قصة الصخور النارية والمتحولة ؟ !

يقول التاريخ الجيولوجى ، إنه إذا رجعنا إلى الماضى السحيق فى تاريخ الكرة الأرضية ، فإننا نجد أن القشرة الأولى للأرض يزيد عمرها على ألفى مليون سنة أو نحوها . . وهذه هى قشرة الجرانيت . ولم يكن على الأرض حياة فى تلك العصور السحيقة ، وبدأت الحياة فى البحار منذ نحو ٥٢٠ مليون سنة. وبدأت النباتات على سطح الأرض منذ نحو ٣٠٠ مليون سنة تقريباً . وفى فجر الحياة الأولى ، أى منذ نحو ٥٢٠ مليون سنة تقريباً ، بدأ الاتصال بين المحيط الباسفيكى والأطلنطى . أى بدأ تكوين بحر جديد هو البحر الأبيض القديم . . فلقد كانت القارة القديمة الكبيرة الجرانيتية التى سميت أرض (جندوانا) تشمل أمريكا الجنوبية وأفريقيا وبلاد العرب وجزءاً من الهند وجزءاً من أستراليا مع مساحة البحار التى بينها . . . كانت جميعها تمثل أرض تلك القارة الشاسعة الأطراف. ويقول إنه قد بدأت تلك القارة فى الانخفاض ، وتكون البحر الأبيض

وامتد جنوباً فى أرض مصر فى عدة غزوات ورجعات .

ولقد يحتم الاستطراد أن نوغل أكثر وأكثر ، فى مجاهل التاريخ الجيولوجى . . ماذا كان قبل الصخور النارية وقبل المياه فى المحيطات ؟

فى البدء كان الله صاحب الوجود الكامل والمطلق ، وهو الأزل الذى لم يسبقه شىء ، وليس كمثله شىء. وهو الخالق الباقى بعد أن يفنى كل شىء . . وأراد الله أن يخلق كوناً محدوداً بعلمه ولا محدود فى علم البشر ، فقال كلمته ، كن ، فكان . كوناً أقصى ما بلغ الإنسان فى معرفته أنه تشكل من غازات ترابية سديمية كانت تدور فى الفضاء الذى خلقه الله ، محدوداً بعلمه ولا محدود فى علم البشر . وبقوة الطرد المركزى كانت الكتل ، مشكلة من الغازات الترابية .ومن تلك الكتل والتجمعات الغازية ، كانت النجوم ، ومن حول النجوم ، كانت الكواكب . وللكواكب أقمار تبع . . وكانت الأرض كتلة من تلك الكتل السديمية من غاز متكاثف ، تتأرجح فى الفضاء ، إلى أن يشاء الله الخالق .

وافترض العلماء لتكوين الأرض فروضاً . . منها :

(أ) فرض يقول ، إن الأرض كانت سديماً وغازات تكثفت ثم راحت تفقد بعضاً من حرارتها بالإشعاع إلى الفضاء المحيط بها حتى كان مع الوقت ، الشكل الكروى الملتهب الذى تركزت مكوناته المعدنية الثقيلة من بعد تجمع ، وتحت تأثير الجاذبية ، ، فى شكل لب مركزى ثقيل ، على حين رتبت المواد الأخف نفسها على شكل طبقات خارجية .

ومع الوقت بردت هذه الكرة الملتهبة بالدرجة التى سمحت بتكوين الغلاف الخارجى من قشرة الأرض الصلدة . ثم باستمرار تقلص الباطن الملتهب بأسرع من السطح أو القشرة الخارجية ، تجعد هذا السطح ليلائم الأبعاد الجديدة . وعندما برد السطح لدرجة كافية ، تكثف البخار المائى المحيط بالأرض ثم ترسب إلى ما نرى اليوم من كتل مائية . ومن ثم، بدأت دورات التعرية والتفتيت ثم الترسيب ثم إعادة تكوين الصخور عبر كل العصور الجيولوجية اللاحقة . ومن الصخور التى تفتتت ، كان الجرانيت ، وفتاته رمال ، تصلدت من جديد ، لتتكون منها الأحجار الرملية النوبية ، التى شيد فيها معبد أبوسمبل وغيره من آثار الفراعنة فى النوبة القديمة .

(ب) وهناك فرض آخر يقول ، إن السدم الغازية الأولى فى المجموعة الشمسية ، بردت بسرعة ثم رتبت نفسها فى شكل مغزلى من مادة شهابية صلدة ، والتى تحت فعل الجاذبية ، تجمعت فى أشكال كان أكبرها نواة الشمس، وكانت الأخر، نويات للكواكب المتبقية فى المجموعة الشمسية. وإنه ليعتقد أن تجمع وتركيز تلك المادة الشهابية قد أنتج حرارة تكفى لأن تفصل المادة فى كل كوكب ، تبعاً لكثافتها وثقلها النوعى . فكان فى الباطن العميق لب من معادن ثقيلة ، وكان على السطح الغلاف الصخرى من المادة الخفيفة . . تلك المادة هى الجرانيت . . وتفتت الجرانيت بالتعرية ، فكان رمالا . . ثم تماسكت الرمال من جديد ،

وتحت ظروف مستحدثة فكانت الأحجار الرملية ، ومنها الصخور الرملية النوبية التي اتخذت فيها معابد الفراعنة فى بلاد النوبة . .

* * *

والأحجار الرملية النوبية ، تسمية أصبحت اليوم تطلق على مكونات شبيهة ، لها نفس التركيب ، وذات الصفات ، ولا يهم أنها تتواجد فى بلاد النوبة مثلا . . . هذه حقيقة علمية استغرقت من البحث العلمى سنين طويلة . . ولسوف نسيح هنا مع تاريخ البحث العلمى لهذا التكوين الجيولوجى ، ولعلنا نخرج من هذه السياحة بمعرفة لماهية البحث أولا ، وكيف يكون ، ثم تعرفاً على الأحجار النوبية ذاتها ، وهل هى نوبية زماناً ومكاناً بمعنى أنها لاتوجد إلا فى النوبة التى بها تسمت ، أم أنها تكوينات لها نظائر فى أماكن أخرى ، وما هى إلا تسمية فقط .

● إن أول من استخدم هذا الاسم هو « جوزيف روسيجر » (J. Russegger) فى عام ١٨٣٧ . ولقد اختيرت صفة « النوبى » هذه لأن ذاك النوع من الأحجار الرملية يظهر على السطح تماماً فى منطقة النوبة ، تلك المنطقة التى يشقها وادى النيل فى كل من مصر والسودان . ولقد وصف « روسيجر» تلك الأحجار الرملية النوبية على أنها من العصر الطباشيرى المبكر ، وسجلها على الخرائط التى رسمها لمصر والنوبة، وقرر

فيها أنا مثل تلك الطبقات الصخرية لايمكن أن تكون ذات عمر يقل عن العصر الطباشيرى المبكر .

● ومنذ عهد « روسيجر » ذاك، شاع الاسم وأطلق على كل نوع من الصخور يطابق الأحجار الرملية التى عرفت وتسمت باسم بلاد النوبة ، بصرف النظر عن مكان تواجدها ، سواء فى مصر أو فى أى مكان من شمال أفريقيا ككل .

● ثم جاء « فيجارى بك » (Figgari Bey) فى عام ١٨٦٤ ، والذى حاول أن يصف التكاوين الجيولوجية لمصر ، فقرر أن فى العصر الترياسى أو الثلاثى ، توجد وحدتان من صخور الحجر الرملى تتخللهما طبقة رقيقة من الحجر الجيرى ، الذى توجد به حفائر تدل على التكوين إبان العصر الترياسى هذا .

● وبعد ذلك جاء « بويرمان » (Bauerman) فى عام ١٨٦٩ حيث وصف بعض مناطق شبه جزيرة سيناء فى الجمهورية العربية المتحدة ، وكتب يقول : إن فى وادى نصب ، وفوق صخور الشست المتبلور ، توجد طبقتان من الأحجار الرملية تفصلهما أيضاً وحدة رفيعة من الحجر الجيرى يصل سمكها ما بين ٨ — ١٥ قدماً ، تحوى حفائر يحتمل أن تكون من العصر الترياسى أو الكربونى . وإلى الجنوب من ذلك يتغطى هذا التكوين بطبقات رسوبية من العصر الطباشيرى .

ولقد أعطى (بويرمان) لتلك التكاوين الحجرية الرملية ، عمراً يبلغ العصر الترياسى . . على أنها تقع على قاعدة من الجرانيت أو الاردواز ، تتبع من أعلاها بصخور العصر الطباشيرى .

● ثم فى عام ١٨٧١ قال « تات Tate » إن تقدير عمر الصخور الرملية فى العصر الترياسى ، إنما هو تقدير لم يوضع على أسس وشواهد من علم الحفريات .. وهو الأساس العملى لعمليات المضاهاة بين الطبقات المختلفة ، والتى تؤدى فى النهاية إلى تقديرات للعصور الجيولوجية وأعمار الصخور . وفى الواقع أن (تات) قد عثر فى الأحجار الرملية فى وادى نصب فى سيناء على حفرية واحدة ولكنها فى حالة جيدة ، وكانت بلاشك من حفريات العصر الكربونى .

● ثم فى عام ١٨٨٣ اقترح «زيتل» (Zittel) إما تعديل صفة (النوبى) ، أو قصرها بحيث تناسب فقط الأحجار الرملية ، التى تكونت فى نهايات العصر الطباشيرى بالنوبة وأسوان والصحراء الشرقية .

● وفى عام ١٨٨٤ اعتبر « داوسن » (Dawson) مسألة تقدير عمر للحجر الرملى النوبى . . مسألة شائكة نوعاً ما . فعلى شاطىء النيل يشكل الحجر الرملى النوبى . أقدم التكوينات الرسوبية فوق الصخور المتبلورة القديمة كالجرانيت مثلا .. ثم إنها متبوعة من أعلاها فى توافق تام بالصخور الطباشيرية . على حين فى شبه جزيرة سيناء ، نجد أن ما أطلق عليه الأحجار الرملية النوبية ، تحتوى حفريات من العصر الكربونى . وعلى

أبو سمبل

ذلك ، فإنه يبدو أنه فى مصر العليا وفى سيناء ، تقع طبقات من الحجر الرملى المتكون فى حقب الحياة القديمة . تحت طبقات من أحجار رملية مشابهة ومتكونة فى العصر الطباشيرى المبكر .

● وفى عام ١٨٨٦–١٨٨٩ قسم « هول» (Hull) الأحجار الرملية النوبية إلى جزأين اثنين .

● السفلى، ويقع ما بين الصخور المتبلورة القديمة ، كالجرانيت ، وبين صخور العصر الكربونى . وسماه بالحجر الرملى الصحراوى .

● العلوى ، وهو أقدم مما يتلوه من أعلى بالطبع من طبقات ، وسماه بالحجر الرملى النوبى ، ونسبه إلى العصر الطباشيرى .

● وفى عام ١٩٠٠ قسم « بلانكنهورن » (Blanckenhorn) الأحجار الرملية النوبية إلى وحدات ثلاث . السفلى ونسبها إلى العصر الكربونى ، والوسطى وليس بها أية حفريات وغير معروفةالعمر ، ثم العليا ونسبها إلى العصر الطباشيرى المتأخر .

● وفى عام ١٩٠٧، وفى وصف لشلال النيل ذكر « بول » (Ball) ما يفيد اكتشافه لحفرية من العصر الطباشيرى العلوى فى الحجر الرملى النوبى وبعض الصخور الطينية التى تعلو الجرانيت والصخور المتحولة فى المنطقة .

● وفى عام ١٩٠٩ اتفق «نيوتن» (Newton) مع « بول» فى تقديره لعمر الحجر الرملى النوبى على أساس من تواجد حفريات مياه عذبة وبحرية .

● وفى الفترة ١٩٠٧ — ١٩١١ قرر « هوج » (Haug) عمرين مختلفين للأحجار الرملية النوبية فى مصر :

— فتلك التى توجد فى وادى نصب بسيناء، تتبع العصر الكربونى .

— وتلك التى توجد فى مصر العليا والنوبة، تتبع العصر الطباشيرى .

— ثم عاد « بلانكنهورن » (Blanckenhorn) فى عام ١٩١٤ ليقرر فى دراساته أن الأحجار الرملية النوبية، قد تمتد فى عمرها من العصر الكمبرى حتى العصر الطباشيرى .

● كذلك عاد « بول » (Ball) فى عام ١٩١٦ ليقرر ، أن الأحجار الرملية النوبية فى غرب منتصف سيناء تتبع العصر الكربونى الأعلى وإن عمرها يقدر من العصر الكربونى المتأخر حتى العصر الطباشيرى المبكر .

● كذلك اكتشف « بارثو » (Barthoux) فى عام ١٩٢٦ تواجد صخور من نفس النوع النوبى ، تصل فى سمكها إلى نحو ١٥٠ متراً عند منطقة أم بجمة بسيناء، وقدر لها عمراً — لما وجد بين طبقاتها من حفريات — بالعصر الكربونى .

— وفى عام ١٩٣١ ، قدم « كليان » (Kilian) بحوثاً يستفاد منها تقديره لعمر الأحجار الرملية النوبية بالعصر الكربونى كذلك . وقال إنها فى أسفلها قد تنتمى إلى العصر الأردوفيسى والديفونى المبكر .

— وفى عام ١٩٣٥ ، أطلق « ديسيو» (Desio) نفس الاسم (الأحجار الرملية النوبية) على تكوينات جيولوجية فى ليبيا لأول مرة ، وأعطاها عمرا كذلك يبلغ العصر الكربونى .

● وفى عام ١٩٣٥ كذلك ، وصف « ساندفورد » (Sandford) تكوينات حقب الحياة الوسطى فى السودان . ولقد اقترح تغيير اسم أحجار النوبة الرملية باسم المجموعة النوبية ، لتكون أعم وأشمل فى محتوياتها . ولكن « ساندفورد » يؤكد فى أبحاثه على مناطق شمال غرب السودان أن مثل تلك الأحجار يبلغ عمرها حقب الحياة المتوسطة ومن المحتمل العصر الطباشيرى العلوى . وفى نفس البحث يؤكد « ساند فورد » أن صفة (النوبى) ، يجب أن تقتصر على طبقات الأحجار الرملية التى تقع بغير توافق على كتل أخرى من الأحجار الرملية ، تكون أقدم من العصر الكربونى المتأخر .

ثم هو فى عام ١٩٣٧ ، يقسم المجموعة النوبية التى اقترحها فى شمال وسط أفريقيا إلى ثلاثة أقسام ، بل إنه افترض مشابهتها بصخور رملية أخرى فى جنوب أفريقيا .

● وفى عام ١٩٣٧ ، وجد «كوفيليه» (Cuvillier) فى وادى أبو الدرج فى الصحراء الشرقية ، ما جعله يعتقد أن ترسيب الحجر الرملى النوبى قد بدأ قبل أفول حقب الحياة القديمة ، ثم هو استمر فى حقب

الحياة الوسيطة . هذه الخلاصة بالإضافة إلى بحوث « بارثو » (١٩٢٦) وضعت الأساس لما يمكن أن يسمى بالتعريف المصرى للأحجار الرملية النوبية ، والذى خلاصته أن أى صخور رملية من هذا النوع ، هى صخور رملية نوبية أو أحجار رملية من النوع النوبى . وكل طبقة يؤرخ لها مثلا بالعصر الكربونى لابد أن تقع على أحجار رملية تسمى بالأحجار الرملية ، مما قبل العصر الكربونى . على حين أن ما يعلو طبقات العصر الكربونى من أحجار رملية يطلق عليها أحجار رملية نوبية مما بعد العصر الكربونى .

● كذلك فى عام ١٩٣٨ ، وصف « بيكارد » (Picard) ما يشبه الأحجار الرملية النوبية فى فلسطين ، فى الرواسب القارية للدرع العربى ، وقدر لها عمراً يمتد من عصر ما قبل الكمبرى حتى حقب الحياة الحديثة .

● وفى عام ١٩٤٦ ، قام نصرى شكرى ورشدى سعيد بدراسة عينات من منطقة خشم الجلالة على الشاطىء الغربى لخليج السويس ووجدوا أن كل التكوينات الحجرية النوبية الرملية ، لها تكوين معدنى متناسق وواحد ، واقترحا أنها كانت رواسب هوائية فى حينها (eolian) جاءت من المنطقة ذاتها .

● كذلك فى عام ١٩٥٠ ، اعترف « فيورن » (Furon) فى كتابه « جيولوجية أفريقيا » بالتسمية (الأحجار الرملية النوبية) إبقاء للعادة التى

اتبعت منذ أطلقها « روسيجر » ، وعلى أنها مجموعة من التكاوين الرملية يمتد عمرها من أوائل حقب الحياة القديمة، وحتى أواخر العصر الطباشيرى

ثم يقرر« فيورن » أن الجزء الأكبر من الأحجار الرملية النوبية فى مصر إنما ينسب إلى العصر الطباشيرى المبكر ، وأنه قد ترسب مباشرة فوق قاعدة الصخور المتبلورة كالجرانيت مثلا . . .

● وفى عام ١٩٥٢ ، عمل « دى لابارنت » (De Lapparent) مقارنة بين تكوينات الأحجار الرملية النوبية فى مصر والجزائر ومراكش . ولقدقرر هذا العالم بأن مشكلة تقدير عمر لمثل هذه التكوينات— وإن تكن قد اتضحت على طول الشاطىء الشمالى لأفريقيا — إلا أنها تبدو كمشكلة علمية مرة أخرى كلما توغلنا إلى الجنوب فى اتجاه السودان مثلا ، حيث تختفى كل الطبقات البحرية . ذلك لأنه كحقيقة واقعة ، أن الأحجار الرملية النوبية الحقيقية ، إنما يؤرخ لها اعتماداً على الحفريات البحرية التى قد توجد فى طبقاتها ، أو بين طبقاتها . ثم يستطرد « دى لابارنت» يقول . . إن الرواسب التى تشكل الأحجار الرملية النوبية فى مصر إنما تنتسب إلى فترة من فترات العصر الطباشيرى (سينومينيان) ، وذلك طبقاً للحفريات الفقارية التى وجدت فى تكوين حجرى رملى بسمك ٣٠٠ متر متبادل مع طفلة ويظهر عند الواحات البحرية، وإن يكن قد

تسمى باسم تكوين البحرية ، وليس الحجر الرملى النوبى . ويذكر دى لابارنت ما يفيد وجود الأحجار الرملية النوبية فى تشاد والكميرون وأفريقيا الاستوائية وغيرها .. وجميعها يمتد عمرها من العصر الكربونى المبكر ، حتى العصر الجورى. . وهذا يختلف تماماً مع تقديرات العمر للأحجار الرملية النوبية الحقيقية .

● وفى عام ١٩٥٢ أيضاً، يقرر « تيرمير وتيرميير » (Termier and Termier) أنه ، من تونس إلى مصر ، وممتداً فى خلال الجزيرة العربية وحتى لبنان ، توجد رواسب الأحجار الرملية النوبية .

● وفى عام ١٩٥٥ قرر (عطية) ، فى تقرير له عن منطقة أسوان ، أن الأحجار الرملية النوبية يبلغ سمكها من ٧٠ إلى ١٢٢ متراً ، وأنها تتضمن ثلاث وحدات علوية ومتوسطة وسفلى، ولكل منها صفاتها وسمكها الخاص .

● وفى عام ١٩٥٩ ، ثبت وجود صخور شبيهة فى الأردن . وقدر لها عمراً بالعصر الطباشيرى . . .

● وفى عام ١٩٥٩ ، كذلك ، سجل (أمين) معلومات جمعت من آبار الحفر عن البترول فى الصحراء الغربية لمصر . ولاحظ أن فى منطقة الواحات البحرية ، توجد طبقة حجر رملى بسمك ٧٧٢ متراً وتحتها طبقة أخرى من الحجر الرملى كذلك وبسمك ٧٢٢ متراً، قدر البعض لها عمراً بالعصر الطباشيرى المبكر ، والطبقتان معاً تقعان على

أحجار رملية محدد تاريخها بالعصر الكمبرى . ولقد وجد أن تكوينات البحرية من هذا النوع توازى تاريخيًّا فى تكوينها ، الأحجار الرملية النوبية.

● فى عام ١٩٦٠ ، نشرت أبحاث فى ليبيا تؤكد نوع الأحجار الرملية النوبية فى ليبيا وقدر لها عمراً بالعصر الطباشيرى السفلى .

● فى عام ١٩٦٢ ، نشر (سعيد) كتابه عن جيولوجية مصر وفى ص ١٦ منه يورد جدولا بتتابع الطبقات الجيولوجية المعروفة فى مصر . ولقد وضع (سعيد) الطبقات المعروفة بالحجر الرملى النوبى ، فى منتصف العصر الطباشيرى (تورينيان — سانتونيان) . وفى تلخيصه لجيولوجية وادى النيل ، نجده يصف بالتفصيل الأحجار الرملية النوبية حول أسوان وقدر لها سمكاً يتردد ما بين ٧٠ متراً ، ١٢٢ متراً . وكذلك قسمها إلى وحدات ثلاث علوية ومتوسطة وسفلى ، ولكل سمكها وصفاتها المميزة التى بنى عليها التقسيم . ولقد قرر الباحث بأن اسم (الحجر الرملى) (Nubia Sandstone) قد أعطى لطبقات من الحجر الرملى ، تنتشر باتساع فى مصر السفلى والنوبة . كذلك قرر بأن الأحجار الرملية الحقيقية ، يقدر عمرها بالعصر الطباشيرى المتأخر ، وأن تلك التسمية يجب أن تتحدد وتختص بالصخور التى لها نفس الصفات والحفريات المميزة لأحجار النوبة الرملية ، كما كان قد قرره « آركل » (Arkel) عام ١٩٥٦ . ويعتقد سعيد أن الأحجار الرملية النوبية تلك ، كانت

قد ترسبت فى بحر ضحل متقدم ، غطى المنطقة كلها فيما بعد ، ومن هنا وجدت بعض الحفريات البحرية . كذلك ترسبت طبقات من الطفلة فى البحيرات التى تكونت قبل أن يغطى البحر المنطقة كلها ، وبعدها .

● وحتى عام ١٩٦٦ ، كانت شركات البترول فى ليبيا مستمرة فى إصدار أبحاث تؤكد وجود صخور شبيهة بالحجر الرملى النوبى هناك ، وتعطيها عمراً يبلغ العصر الطباشيرى تقريباً . .

. . وبعد . .

فإن الأحجار الرملية النوبية التى تشكل الجبل الذى نحتت فيه معابد رمسيس الثانى الستة فى بلاد النوبة ، والتى نقلت ، تلك المعابد حديثاً ، إلى قمة من هذا النوع ، هى عبارة عن تكوين من التكوينات الجيولوجية التى تشكل التراب المصرى . . وهو تكوين لايزال الجدل العلمى الكبير يدور بشأنه . . وعلى ذكر التكوينات الجيولوجية للتراب المصرى ، فإننا نعلم أن الزمن الجيولوجى أو المدى البعيد الذى تكونت فيه اليابسة فى كل مكان قد قسم بغرض الدراسة والبحث إلى حقب وعصور . .

كل حقبة وكل عصر يختص بحياة كانت تسوده وبرواسب كانت تضاف إلى اليابسة هنا أو هناك . وبالإشارة إلى مصر وترابها الوطنى ، فلقد قدرت البحوث الجيولوجية التى أجريت عليه ، أن الأقسام

الجيولوجية التى تميزه والتى أمكن وضعها على خريطة جيولوجية لمصر ، إنما تشغل المساحات الآتية :

العصر	المساحة التقريبية بالكيلومتر مربع
العصر البليستوسينى والحديث	١٦٥٠٠٠
« البليوسينى	٧٠٠٠
« الميوسينى	١١٣٠٠٠
« الأوليجوسينى	١٦٠٠٠
« البليوسينى والأيوسينى	٢٠٣٩٠٠
« الطباشيرى	١٣٠٠٠٠
الأحجار الرملية النوبية (الطباشيرى)	٢٩٠٠٠٠
العصر الجورى	٤٥٠
« الترياسى (أو الثلاثى)	٥٠
« الكربونى	١٢٠٠
ماقبل العصر الكربونى (صخور نارية ومتحولة)	٩٣٠٠٠
ويكون مجموع مساحة الجمهورية العربية المتحدة	١٠١٩٦٠٠

يبقى بعد ذلك أن نورد هنا النظريات المختلفة والمتعددة، عن طريقة تكوين تلك الطبقات المسماة بالصخور الرملية النوبية .. ونذكر منها :

١ ــ نظرية « ج . ك . والتر » فى سنة ١٨٨٨ ، تقول : إن تلك الطبقات تكونت بفعل الرياح التى تسببت فى تفتيتها ، ثم نقلتها من أماكن بعيدة ، ثم ترسبت فى مناطق وجودها اليوم ، وتصلدت . .

٢ ــ نظرية « ج . بول » فى سنة ١٩٠٧ ، تقول إن هذه الطبقات ترسبت فى مياه ضحلة كانت بالمنطقة التى تشغلها اليوم هذه الصخور ، وفيما يشبه بحيرات كبيرة ، بعد أن نقلت إليها بوسيلة أو بأخرى ، من وسائل النقل كالرياح والمجارى المائية ، أتت بها من أماكن جرانيتية بعيدة .

٣ ــ نظرية « ب . نيوتن » فى سنة ١٩٠٩ ، تقول : إن المرجح أن هذه المنطقة ــ منطقة بلاد النوبة . . كانت مغطاة بالمياه العذبة فى شبه بحيرات كبرى ثم نقلت إليها تلك الرواسب ، ثم ترسبت بعد أن ظلت عالقة بمياه تلك البحيرات فترة من الزمن . ويستدل على ذلك بوجود بعض بقايا حيوانات أو نباتات لاتعيش إلا فى المياه العذبة .

٤ ــ نظرية « ج . بارتو » فى سنة ١٩٢٢ ، تقول إن تلك التكوينات إنما اتخذت شكلها ذاك بفعل الريح عقب أن كانت المنطقة مغطاة كلها بالمياه ، ثم جفت وانحسرت عنها المياه .

٥ ــ نظرية « ج . كوفيليه » فى سنة ١٩٣٠ ، تقول بما قال به « والتر » من أنها بفعل الرياح تكونت .

٦ ــ نظرية نصرى شكرى « فى سنة ١٩٤٥ وتقول : إن تلك

الأحجار الرملية النوبية وتكويناتها ، شبيهة بالتكوينات ذات الطابع الخاص والتى تكونت فى عصور عدة من الدهور الجيولوجية ، وأنها ليست مميزة لعصر بعينه . وهى عادة تمثل رواسب شواطىء البحار والمحيطات القديمة ، أو ما بعد الشاطىء أو فى مياه مالحة ضحلة ، فى مساحات من الأرض كانت آخذة فى الانخفاض .

٧ — فى الفترة من عام ١٩٥٠ حتى ١٩٥٢ أيدت بعثات المساحة الجيولوجية الرأى الأخير مع بعض إضافات إليه . .

خلاصة القول فى ذلك ، أنها رمال نتجت عن تأثيرات عوامل التعرية على مناطق جرانيتية ثم انتقلت ثم ترسبت ثم تصلدت فكانت الأحجار الرملية التى تسمت باسم النوبة فيما بعد .

وهكذا تكون الصخر الذى جرى من فوقه نهر النيل العظيم هادئاً منتظماً . . فمهد لأقدم المدنيات فى العالم أن تقوم على ضفافه . . وفى تلك المناطق بالذات . .

ولعلنا فيما مضى من صفحات قد تتبعنا كيف تكون الصخر الذى اتخذ فيه معبد «أبو سمبل» وبقية معابد رمسيس الثانى فى بلاد النوبة . .

هكذا تكون الصخر . .

* * *

وجرى النهر

كانت فى الزمان الغابر عصور مطيرة غطت شمال أفريقية فى نهايات عصر الجليد . وبالأمطار ، كانت الصورة غيرها اليوم . . لم تكن الصحراء الكبرى ، وإنما كانت أنهاراً وجناناً فيحاء . .

وفى مصر . . كان هناك نظام نهرى ينبع من جبال البحر الأحمر. وما كان النهر العظيم ، الممتد من الحبشة حتى البحر الأبيض قد التأم شمله ، واجتمعت له النظم النهرية المختلفة فى الحبشة والنوبة ومصر لتتآزر فى تكوين عظمته ولتجعل منه فيما بعد ، واحداً من أشهر أنهار العالم بعد أن أصبح الكل فى واحد . . وهو كذلك أطول أنهار العالم ، إذ يبلغ طوله ٤١٤٥ ميلا . كيف كان ذلك ؟ !

كانت الأمطار تنهمر فى المنطقة غزيرة . . وكانت السيول من بعد تجمّع ، تنحدر من المرتفعات بالطبيعة . وما كانت هناك فى المنطقة مرتفعات بأكثر مما يمتد على ساحل البحر الأحمر . . فتنحدر السيول من فوقها إذن ، بعضها إلى البحر الأحمر على الجانب الشرقى ، وبعضها إلى المنخفضات والهضاب على الجانب الغربى . وهى فى جريانها لم تكن موحدة المجرى ، وإنما كان جريانها فى نظم نهرية أو وديان مستعرضة ، تجرى بالماء فوق حصير من رمال وزلط فتشق قنوات تمتلىء به من منابعه

المتدفقة من فوق سلاسل جبال البحر الأحمر ، وتتقابل فيما بينها القنوات والجداول ، مجمعة لشتات السيل المنحدر فوق الصخور المختلفة على طول الصحراء الشرقية ، من رملية حجرية إلى جرانيتية إلى جيرية إلى غير ذلك . . وللماء الجارى فعله فى كل نوع من هاتيك الصخور ، والذى يتوقف على نوعية الصخر ذاته . تتقابل الجداول لتشكل النظام النهرى القديم الذى أصبح فيما بعد ، ودياناً جافة ، يوم انحسر المطر وقل الترسيب وتغير المناخ . بتغير مساحات الجليد وانحساراته المتتالية .

قلنا من قبل ، إنه كان للبحر فوق أرض مصر غزوة أخيرة . امتدت فيها مياهه على شكل ذراع طويلة فوق أرض مصر ، ثم عاد البحر ينحسر انحساره الأخير . . . وامتد النظام النهرى المصرى القديم ، حتى كان فى الفيوم مصبه . إذ أن منخفض الفيوم الذى كان الاعتقاد السائد أنه يمثل إحدى الواحات المنتشرة فى صحراء ليبيا ، لم يكن إلا منخفضاً شهد تكوين دلتا لنهر قديم — أقدم من نهر النيل عند ظهوره والتئام شمله — فى عصر الأيوسين الأعلى ، وتكونت بذلك الرواسب المشتركة — نهرية وبحرية — فى تلك المنطقة .. ثم بعد ذلك تغيرت الأحوال المناخية وحدثت هزات أرضية نتجت عنها أخاديد عميقة ، كأخدود شغله من بعد ، البحر الأحمر ، وكأخدود آخر امتد عبره وادى النيل بشكله الحالى . وأصبح النهر الحديث يضم كل الأنهار القديمة .. يضم الكل فى واحد . . وأصبح وادى النيل الحالى نهاية المطاف للأنهار القديمة .

ذلك معناه أن النيل كان من قبل أن يكون نهرنا العظيم هذا . . نظما نهرية تشكل ثلاثة أنهر . . فكان هناك نهر الحبشة . . ونهر النوبة . . ونهر مصر . ولقد كانت تلك الأنهار على انفصال ، وغير متصلة ببعضها البعض . يستمد نهر الحبشة مياهه من بحيرة (أو كروى) ويستمد نهر النوبة مياهه من روافد تجلب إليه ما تجمع من مياه أمطار تسقط فوق ما يحيط بالمنطقة من جبال . . ثم نهر مصر ، وتجلب إليه المياه وديان تنحدر من جبال الصحراء الشرقية ولم تكن تحمل معها إلا الحصى والزلط والرمال .

ثم . . حدثت اضطرابات أرضية . . فصار الكل فى واحد . . وصار ما يعرف اليوم بالنيل العظيم يمتد من الحبشة حتى شمال مصر لآلاف الأميال . . واستمرت الأمطار غزيرة فوق مرتفعات الحبشة تمده موسمياً بفيضانه الشهير المنتظم . . وتغيرت الظروف المناخية فى النوبة وفى مصر ، فجفت الروافد التى كانت تمد النيل فيها . وكأنما أراد الله ذلك لخير بشر سوف يحيون على ضفافه فيما بعد ، ويقيمون على شطيه أقدم الحضارات . جفت الوديان فى النوبة ومصر ، لأنها ما كانت تجلب إلا الحصى والزلط . . وبقيت المنابع فى الحبشة لأنها تجلب الغرين والطمى والخصب أساس الزراعة . .

والنيل يأتى من ابعيد ، ينبع من بحيرة عظمى جديرة بأن تكون (أم النيل) ، ناجوها فقالوا . .

تباركت يا رب ، وشكراً لك يا أم النيل . .

أنجبت ، فأكرم بالمنجبة والنجيب . .

ولكنهم ظلموك فى المشيب فأطلقوا عليك اسماً لاتمتين له برحم!

لقد نسبوك — لاسامحهم الله — إلى فيكتوريا ، وأنت منها ومن أهلها براء . . ألا ما أجمل اسمك القديم « بحيرة أو كروى» ، الذى عرفت به منذ عاش على ضفافك إنسان . .

ومنها — ومن أخوات لها — يخرج النهر يمضى فى رحلته الطويلة ما بين الحبشة وما يسمى ببلاد النوبة ، التى تمتد فى مصر والسودان من الدكة إلى أسوان . يجرى فى أرض « واوات » كما كان يسميها المصريون القدماء ، أو بلاد أثيوبيا كما أطلق عليها الإغريق والرومان . إنه يجرى هناك فى بلاد النوبة ، أرض الذهب كما تعنى الكلمة فى لغة الفراعين . .

وفى بلاد النوبة هذه ، عمرت السلالات النوبية أراضيها منذ عهد قديم ، وكانوا دائماً على صلة بمصر فى الشمال . وكانت القوافل المصرية تسلك طريقها فى بلاد النوبة إلى الجنوب فى طلب الذهب والأبنوس والصمغ وجلود الحيوان ، وتحمل إليها الكثير من صناعات مصر المعروفة حينذاك . وفى عهد الدولة الوسطى استطاع ملوكها الأقوياء أن يتسعوا بمصر نحو الجنوب ، فكانت بذلك بلاد النوبة جزءاً من الإمبراطورية

المصرية المترامية الأطراف يديرها حاكم يسمونه نائب الملك إظهارا لأهمية هذا الإقليم . ثم مع الزمن تضعف السلطة المركزية فى الشمال ، فتظهر أسرة نوبية تؤسس ملكاً عريضاً حول (نباتا)، ويستطيع أحد ملوكها وهو « بعنخى » فى سنة ٧٥٠ ق . م ، أن يبسط نفوذه فى الشمال ، وأن ينشىء فى مصر أسرة حاكمة ، هى المعروفة فى التاريخ الفرعونى باسم الأسرة الخامسة والعشرين . ويتوحد وادى النيل من البحر المتوسط إلى جنوبى الخرطوم» لأول مرة فى التاريخ . . وتنتشر حضارة الفراعنة متوغلة فى الجنوب ويسمى « بعنخى » نفسه (جالب السلام إلى البلدين ، ملك الشمال والجنوب ، ابن الشمس ، صاحب التيجان) .

تلك هى بلاد النوبة ، ثم يتركها النيل استكمالا لرحلته إلى مصر ابتداء من أسوان وحتى الشمال حيث يتخذ دلتاه . . ولكنه قبل أن يتخذ دلتاه الحالية وشكله الحالى ، وجد كما قلنا من قبل مع الزمن طريقه فى منخفض الفيوم ، وكون بحيرة كبيرة كانت تعلو نحو تسعين متراً ، عن منسوب بحيرة قارون الحالية . وقد سجلت بحيرة الفيوم القديمة هذا الاتصال المباشر بنهر النيل القديم . فهى كبحيرة ، يغذيها النهر فى الفيضان ، وهى تغذيه فى أيام التحاريق . وبذلك تابعت بحيرة الفيوم النهر ، فى تعميق مجراه .

* * *

وشاءت إرداة الله أن توجد يانيل .

وشاءت إرادة الله يانيل ، أن تخلق كل ما خلقت على ضفتيك فى مصر . .

فكيف كان ذلك ؟ !

لقد كان ذلك بما حمل النهر من غرين بعد أن اتخذ سبيله المنتظم على ما تراه اليوم إلى البحر الأبيض مصباً . وعند منتصف الصيف من كل عام، يبدأ الفيضان وتغطى مياه النهر بعد أن تبلغ أرض مصر فى رحلة طويلة مثيرة — كل منبسط من الأرض على جانبيه .. وكذلك ، ذلك الشريط الضيق على جانبى النيل عند النوبة وما بعدها، وفى الشمال كانت الأحراش والمستنقعات . . والمياه فى فيضانها تكون محملة بأحمالها من غرين وطمى ، أتى به النهر بعد أن عدل منابعه فصارت فى المرتفعات الحبشية . وفى نهاية نحو مائة يوم تقريباً تعود المياه تنحسر عن منبسط الأرض فى مصر ، لجفاف الأمطار فوق جبال الحبشة . وهى إذ تفعل ، إنما تترك فوق بعض رمال الصحراء من حول النيل فى مصر ، طبقة رقيقة ومستوية من طين أسود اللون . تلك التربة السوداء ذات الخصب ، هى التى أمدت المصريين بالغذاء منذ عصور مغرقة فى القدم . عصور أبعد من العصر التاريخى الذى سجله الإنسان ، ومنذ ما يزيد على سبعة آلاف سنة . وعندما كانت أوربا لا تزال أرض الصيادين

المتوحشين ، كان الإنسان على ضفاف النيل يخطو أولى خطواته نحو دنيا الزراعة نحو إنتاج القوت وما ترتب على ذلك من حضارة ومشاكل اجتماعية ، هى رفيقة الإنسان منذ ذاك الحين وحتى اليوم ، وإلى آت من الزمان قريب ، أو بعيد .

وحقت بذلك مناجاة النيل . من بعد مناجاة الخالق . .

تباركت يارب ، وحمداً لك يانيل . .

تباركت يارب ، ما أكرمك وما أعظم آلاءك . .

أردت لمصر الخلود فأجريت لها من أقصى الأرض الكوثر الفياض .

وحمداً لك يانيل ، ما أنبلك وما أوفاك . .

قطعت المسافات الطوال ، لتجعل من مصر جنة وارفة الظلال . .

ولعل ذلك أيضاً ما أوحى « لهيرودوت » بكلمته الخالدة . . (مصر هبة النيل . .

* * *

وكان النيل هو المعلم الأول لاجدال ، حيث أوحى إلى ساكنى جروفه أنه من الأوفق أن يقيموا متجاورين . ومن ثم بدأت الجماعات المستقرة ، وهنا ، تحتم الضرورة أن يعملوا وفقاً لخطة مدروسة ، وأن يكون هناك قادة ينظمون عمل أولئك الذين يزرعون ويحرثون . وهكذا ولدت أول حكومة على ضفاف النيل . ذلك أنه ، ما إن عرف الإنسان

الزراعة ، وهدأ فى مكانه وترك الصيد والرعى والتجوال فى الغابات والبوادى ، حتى شرع يؤسس مؤسسات الحضارة لأن وجوده مستقراً فى مكان ، يجعله فى حاجة إلى حكومة تنظم عمله وتحرس حقله ، وتحكم فى مشاكله ، وتمنع اعتداء غيره وتدافع عن ممتلكاته . كذلك أضحى فى حاجة إلى بيت ثابت ، استقرت فيه الأسرة وترابطت .

وكما أن الطبيعة قد أنعمت على المصرى القديم بالنيل . . أو أن الإنسان هجر البرارى والصحارى إلى حيث النهر ، فتعلم منه الزراعة وتفقه فى علاقة الماء بالزرع ، كذلك فإن المناخ الجاف من حول النهر ، علمه وأوحى إليه بفكرة التحنيط . . والخلود . . والدين . .

تباركت يا نيل ، علمت المصرى القديم أشياء أفادته فى زراعته وفى ديانته وفى شتى أمور مدنيته وحضارته . . وكانت هذه أولى المدنيات وأس الحضارات، فى العالم . ولقد كان هناك مع تقدم الزمن — من يقيمون فى الشمال ، وأطلق عليهم اسم سكان مصر السفلى ، لأنهم يعيشون فى منطقة تقع إلى الأسفل من مجرى النهر . وكان هناك كذلك من يعيشون فى الجنوب ، وسموا بسكان مصر العليا لأنهم يعيشون فى منطقة فى أعلى النهر .

ولما كانت السيطرة على النهر فى أرض الدلتا عند المصب أصعب من مثيلتها عند الجنوب ، تطورت مصر السفلى وتقدمت واستطاعت

أن تغزو مصر العليا حتى توحدت جميعاً ، تحت حكم واحد فى بداية عصر الأسرات . وخضع للحاكم آنذاك بشر كثير فرض عليهم الضرائب . وهى فريضة توخذ من ثمار الأرض وما يزرعون . وبداهة ، أنه كلما زاد المحصول ، زادت جملة حصيلة الضرائب .

ولهذا كان من الطبيعى أن يعنى الحاكم بزيادة غلات الأرض من الحبوب ، وهكذا بدأ الاهتمام الرسمى بالزراعة ومتطلباتها .

النهر هو المعلم لامشاحة . . ولعل من الممكن أن نتتبع دور النهر . . نهر النيل — فى الحضارة البشرية طراً ، من استقرائنا لعلامات بارزات على ذلك الطريق ، علمها للمصريين القدماء ، وأوحى بها إليهم :

— فالنهر — علمهم كيف يتوقعون الفيضان فراقبوا السماء والنجوم وأوجدوا التقويم ، فكان الفلك .

وعلمهم كيف يقيسون الوقت ، ومن ثم استطاعوا تسجيل الحوادث بأى شكل من الأشكال . . وتطور ذلك حتى كانت الكتابة .

— وعلمهم كيف يتخذون من نبات البردى والبوص فى أحراش النيل أوراقاً وأقلاماً . .

— وعلمهم أصول المساحة والحساب ليقيسوا لكل زارع حدود أرضه بعد أن تغمرها مياه الفيضان ، وليحسبوا عدد القرابين وما وفد منها على المعابد .

ـــ وعلمهم كيف يتخذون من طينه ما يصنعون به قوالب الطوب لبناء بيوتهم .

ـــ وعلمهم كيف يخترعون المحراث والمعزقة ، وكيف يتخذون من طميه ما يصنعون به أدواتهم الفخارية . . ثم نسجوا القماش ودبغوا الجلود . . علمهم الكثير والكثير . . وأفاض عليهم الخير الوفير . . فتفرغ منهم من تفرغ لأعمال المدنية والحضارة الأولى . . وما الحضارة إلا نتاج للتفرغ .

ونعود هنا فنقول، إن المدنيات أو الحضارات الأولى فى تاريخ العالم ، والحضارة الفرعونية من أقدمها يقيناً ، قد نشأت حيثما كانت فى وديان الأنهار . إذ كانت تعتمد فى أحسن حالاتها ، على السيطرة التى تمت لمنشئيها والقائمين بها ، على عامل مادى فى بيئتها الطبيعية . . ذلك العامل ، هو الماء الدائم الذى تزخر به الأنهار الكبرى .

إن أهم ما بين الهمجية والمدنية من فروق ، هو أن الناس فى الحالة الأولى يعيشون فى أسلوب يكرهون عليه . أما فى الحالة الثانية ، فإنهم يعيشون كما يريدون أن يعيشوا . وليس الفرق بين الحالتين على حد قول الجغرافى الألمانى « زيتل » (Zittel) فى درجة علاقتهم بالطبيعة ، بل هو فى نوع هذه العلاقة . وفى وسعنا أن نصف الثقافة بوجه عام بأنها حالة الإنسان حين يتحرر من سيطرة الطبيعة . ولا نعنى بذلك ، التحرر

الكامل من هذه السيطرة ، بل نعنى بها أن يتفاعل الإنسان والطبيعة تفاعلا أوسع نطاقاً ، وأشد تنوعاً ، وأكثر استمراراً . .

ولقد كانت هناك ثلاث مراحل فى هيمنة الإنسان على الأرض التى يعيش عليها ، والتى يجد من نتاجها حاجته من القوت والراحة .

فنى الأولى : يترك الأرض كما يجدها ويكتفى بما تنتجه من ثمار من غرس الطبيعة لا من غرس يده .

وفى الثانية : يغير معالم الأرض بحفرها وحرثها ، ثم يختار من النباتات البرية الأنواع التى يؤثرها لأغراضه .

وفى الثالثة : ينقب الإنسان فيما تحت السطح ، ويتخذ من الموارد المعدنية عتاداً له وعدة .

والحق يقال من بعد ، إن المدنية هبة الماء حيث كانت وحيث كان . فبالماء كانت الزراعة ، وبالزراعة كانت الوفرة التى أتاحت الحياة لعدد من السكان ، زيادة على المشتغلين بالزراعة منهم . . وذلك ما مكن لوجود عناصر من البشر لاصلة لها بالزراعة ، ولكن منهم الفنان والمهندس والعامل والعالم ، وكل أولئك ساهموا فى بناء المعابد وخلدوا الحضارة : ؟ مضينا مع النهر والإنسان من حوله نتلمس ما أفاء النهر به على من اجتذبهم إليه من البشر . .ولكن من أين جاء البشر ؟ !

لقد قالوا . .جاء الناس إلى النهر مهاجرين من الأدغال أو من

الصحراء ، أو فراراً أمام ظروف قست عليهم فبحثوا عن الأنسب . .
ويبقى بعد ذلك تساؤل قائم .. ولكن من أين بداءة جاء الإنسان ؟ .

جاء الإنسان إلى النهر ، ليحيا من حول المياه العذبة ، إذ لاحياة بدونها إطلاقاً . . جاء الإنسان مهاجراً من أى مكان ، ولكن من أين جاء أصلا ؟ ذاك سؤال قد يتطور بالسائل حتى يسأل ، وما الحياة ذاتها ؟ ! ولقد يجرنا ذلك إلى استطراد يخرج بنا عن مجال بحثنا هذا ، ولكن لاعلينا إن نحن تناولناه فى شىء من تركيز وإيجاز ، فنقول :

بدأت الحياة يوماً ما . . وبطريقة ما . . وتطورت ابتداء من الخلية الأولى . . وقصة الخلية الأولى هى قصة الحياة ذاتها ، حتى فى الإنسان قمة التطور . . وكما هى فى الحيوانات من أدناها إلى أرقاها ، وكذلك فى النبات . وبدأت الخلية تتطور حتى تركت لنا فيماتلامن زمان ، حفريات

تروى قصة تتابع الحياة على الأرض . ولكى نقول الحياة على انطلاق معناها ، يجب أن نعرف ما هى العناصر الأساسية فى قصة الحياة بداءة . . تلك الحياة التى نشأت وتكونت من شواهد غيرمباشرة ، حدثت مبكراً جداً عن الزمن الذى أمكن لإنسان اليوم المتحضر ، أن يعثر بين رواسبه على حفريات محفوظة . وعموماً ، فإنه يمكن تلخيص تلك الأساسيات الضرورية للحياة فيما يلى :

١ — المركبات الكربونية البسيطة ، ومصدرها الغلاف الجوى الذى

كان على حد قول بعض النظريات ، فى ابتدائه مشبعاً بغاز ثانى أكسيد الكربون وبدرجة كبيرة . ولقد أمكن للعلماء اليوم تحضير مركبات لأحماض أمينية معقدة من مركبات أخرى كربونية بسيطة . وهم يفترضون اليوم أن مثل تلك المركبات الأمينية ، إنما هى كانت الخطوة الأساسية فى ظهور الحياة ، أول ما ظهرت . . ثم كانت الأنزيمات والبروتوبلازم وعوامل الوراثة ، فاستمرت الحياة وانتشرت على الأرض .

٢ — ظهر بعد ذلك التمثيل الضوئى وأصبح العامل الأساسى والرئيسى فى إنتاج الغذاء والقوت . . وهو يعتبر القوة الميكانيكية الوحيدة ، فى هذا الخصوص ، لكل ما على الكوكب من أحياء . وبتعاون الخلايا المفردة ، نشأت النباتات والحيوانات الراقية . وبدأت منذ ذاك ، أهرامات الغذاء تتكون تلقائياً ، فى كل الظروف المواتية والممكنة .

٣ — بمجرد أن تكونت الحياة ، وكان التمثيل الضوئى الذى يستفيد بمصدر للطاقة لاينفد ، ألا هو أشعة الشمس ، بمجرد أن كان ذاك ، كان انتشار الحياة . وكان الانتشار يومذاك يصحبه الهدوء والسلام والتعايش بين كل المخلوقات .

٤ — كان ذاك عندما كان الخط البيانى لمصادر الغذاء آخذاً فى الصعود ، ولا يدانيه خط انتشار الأحياء . وبمجـــرد أن بدأ خط انتشار الأحياء يلاحق خط الغذاء على لوحة القدر ، فيلحق به ، بل يكاد يسبقه . بدأت منذئذ المنافسة والصراع على وجه الأرض وأصبح

واضحاً . أن لابقاء إلا للأقوى والأصلح . وسارت الأحياء بذاك الصراع فى مسالك التطور ، من رقى إلى أرقى ، حتى كان الإنسان متربعاً على القمة اليوم بما يتمتع به من عقل وفهم وإدراك وتخيل منظم .

وهكذا عدلت الحياة نفسها ، وطورت أمورها وسارت ولم تتوقف بإذن خالقها ومشيئته ، ومازالت تسير حتى أصبح اليوم وعلى مدار العالم كله ، ما يزيد على المليون من أنواع المخلوقات الحية ، من نبات وحيوان على وجه المعمورة . وتمتلك العناصر الحية مرونة مكنتها فى كثير من الأحيان ، من أن تهاجر وتنتشر متجنبة بذلك ظروفاً قهرية للطبيعة ، أو بحثاً وراء ظروف أنسب . والعمليات الجيولوجية والطبيعية الموجودة منذ الأبد ، وإلى الأبد ، مسئولة عن كل تغير ينتاب سطح الأرض سواء بالصالح أو بالطالح. ولذلك ، فهى مسئولة إلى حد ما عن فتح طرق الهجرة لتلك الأحياء ، بين مساحات الأرض الشاسعة والمحيطات المهولة . تلك المسالك هى ما يخترقها النبات أو الحيوان يوم تقسو الظروف ، إلى أجواء أخرى أنسب ، يكون فى مكنة الأحياء أن تتأقلم فيها ، أوهى على العكس تنقرض وتتلاشى تماماً . . ودون رجعة إذا هى فشلت . إذن ، فتغير الظروف على الأرض كان دافعاً لعجلة التطور والتقدم إلى أنواع أحسن وأنسب . وكأنما الطبيعة ــ ولغرض بعيد الهدف ــ كانت تحاول أن ترتب الحيوان بجوهر العقل فيه ، وهو ما يخالف تماماً تضخم الجسم وتكتل البدن . . وبعد أن جاء الإنسان كانت هناك شواهد تبين

أن الغزو أو الهجرة ، ربما يتأتى دون دوافع قهرية من الطبيعة ، وإنما بغرض البحث والاستكشاف ، لأماكن جديدة لم تستعمر . ومثل على ذلك ، ما فعله الإنسان الحديث لأماكن فى الدنيا كانت تفتقر إليه ، كاستراليا مثلا . .

وبوجه عام ، فإن البحث فى الحفريات القديمة يؤدى إلى نتائج يستشف منها بأن البقاء على الجنس والنجاح فى الصراع من أجل الحياة وعدم الانقراض ، إنما يتوقف على الآتى :

١ — النجاح فى الاستحواذ على مصادر وفيرة للطعام بأية وسيلة .

٢ — سهولة التحرك والهجرة إذا ما حتمت الظروف ذلك ، بحثاً أو هجرة .

٣ — التناسل بكثرة تقاوم الهلاك ، أو العناية بالولائد .

٤ — المقدرة على حماية النفس والصغار ، ضد أهوال الطبيعة والأعداء . .

وفى واقع الأمر . فإن مسرح الحياة كان وما زال غنياً بالوجوه الجديدة التى تستطيع الظهور على خشبته . ولكن القليل جداً منها ، هو ما يطلب للقيام بدور فى ملهاة الحياة . . وإذا ما نجح فى اختبارات الحياة والطبيعة ، كتب له البقاء على جنسه والقيام بدوره فى الدراما العنيفة التى لم تتم فصولا بعد . .

والإنسان .. أحد تلك الخلائق . وإن يكن تميز عليها بعقله وبصيرته ، فهو فى رأى العلم لايعدو أن يكون ظاهرة مناخية ليس إلا . . ظاهرة حتمها التطور والتأقلم تغلباً على ظروف مناخية وطبيعية . وهم يقولون إن للإنسان أسلافاً قد تكون من القردة أو الشمبانزى أو الغوريللا أو الليمور ، وصلت فى نهاية تطور إحداها إلى إنسان اليوم . وإن تلك الظروف هى تتابع غزوات الجليد — فى عصور الجليد — فى غزو وإدبار ، على سطح اليابسة والماء معاً. كانت نتيجة ذلك ، ظهور أنواع متطورة من حيوانات قريبة الشبه بالإنسان ، هى أسلافه . ثم انتشرت تلك الكائنات الجديدة — الإنسان — خلال العالم القديم .

ومن خلال علوم الجيولوجيا والحفريات القديمة ، والأجناس وما إليها — تماماً كأى حيوان أو نبات — أمكن التأريخ للإنسان منذ كان ، وقبل أن يكون ، وإلقاء ضوء كشاف على ماضيه . واحتمالات نشأته الأولى ، ثم تطوره حتى كان إنسان اليوم . وعلى إشعاعات من تلك العلوم ، أمكن تتبع بقايا حفريات الإنسان الأول وأسلافه ، فى مناطق متعددة من أركان الدنيا . . منها جاوا والصين وألمانيا وتنجانيقا . . وبلاد النوبة والصحارى المصرية ، وغيرها . . هنا وهناك فى تلك الأماكن ، أمكن للبحث العلمى ، أن يستنطق بقايا وجدت وحفريات اكتشفت ، وأن يفهم عنها أن ذاك المخلوق الذى أطلقوا عليه سلف الإنسان ، وإن يكن لم يتحدد بعد على وجه من اليقين ، بل ما زال حلقة مفقودة — قد أثبت

تكيفه وتأقلمه باعتياده على حياة الجليد فى ظروفها وأحوالها العامة الأولى، حين دهمته . . فنجا من أن ينقرض . . وتطور إدراكا وعقلا ، فيما بعد .

ولقد أمكن بالدراسة تتبع ظهور الإنسان فى فترة انحسار الجليد الثانية على الأرض . ثم انتشاره فى أوائل عصر البليوستوسين . وتطور بازدياد فى حجم مخه ، لا فى شكله العام ، فكان إنسان «كرومانيون» الذى كان مخلوقاً أكثر تطوراً مما قبله وأوفر رقياً ، حتى يقال إنه صنع معظم أسس الاكتشافات التى كانت من بعد ، شموعاً على الطريق تضيء ، وعلامات جد واضحة ومميزة عندما بدأت الأشعة من وراء الأفق المظلم ، تنبئ عن مقدم فجر التاريخ المرتقب فى حياة الأرض . .

* * *

وإننا لنتحدث عن الزمان وما كان فيه، وياحبذا لو أننا تعرفنا كيف يقاس ذاك الزمان فيما قبل التاريخ . . وكيف يرجع العلماء إلى الوراء يضربون فى أحشائه ، ويستخرجون حقائقه . . يستعينون على ذلك لاشك بمقاييس زمنية اتخذوها ، واتفقوا عليها ، ولعل من أحدثها وأهمها ذلك الذى يسمى بالكربون (١٤) .

ويعتبر الكربون (١٤) — تمييزاً له عن الكربون (١٢) المسمى بمقدار وزنه الذرى ، أحدث المقاييس العلمية التى تقاس بها عصور ما قبل التاريخ . ولقد وجد العالم الأمريكى «ويلارد ليبى» (Willard Libby)

صاحب الأبحاث الجادة فى الطبيعيات الذرية ، أن نصف ذرات هذا الكربون تتحلل فى الأجسام الحية ، خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، يعمل فيها حساب فرق التقدير بنحو ثلاثين سنة بالزيادة أو بالنقصان . فإذا جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجرى ، كان من الممكن حساب أو تقدير ما بها من كربون (١٤) مع تقدير الزمن الذى انقضت فيه حياة الكائن الحى الذى تخلفت عنه تلك البقايا ، على حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون. فإذا كان هذا المقدار نصفاً ، فقد مات ذاك الكائن الحى قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة . وإذا كان ذلك المقدار ربعاً ، فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألفاً ومائة وست وثلاثين سنة . ويزيد عدد القرون ، كلما نقصت نسبة البقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بينه وبين الكربون (١٢) . ومع ذلك الفارق القليل الذى يحسب فيه الحساب لخطأ التقدير .

بذلك ، تمكن الإنسان الحديث أن يقفل راجعاً فى تاريخ الإنسان القديم إلى ألوف القرون بدلا من العشرات أو الآحاد . ووضع علماء الطبقات والحفائر مقادير الأعمار المتطاولة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وجدت فيها بقايا الأجسام البشرية. وقدروا للطبقة الحجرية ثلاثة أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة ، وستمائة ألف سنة . وتنسب إلى الطبقة العليا بقايا الإنسان التى وجدت

فى الأقاليم الغربية من القارة الأوربية وإلى الطبقة الوسطى بقايا الإنسان التى وجدت فى أواسط القارة وأقدم من هذا بقايا الإنسان التى وجدت فى القارة الأسيوية بين الصين وبلاد الملايا . ومثلها فى القدم أو أقدم منها ، بقايا الإنسان فى أقاليم الجنوب الأفريقى .

ومن أحدث البقايا الإنسانية التى وجدت فى القارة الإفريقية فى سبيل البحث عن أسلاف الإنسان ، جمجمة عثر عليها « ليكى» (Leeky) عام ١٩٥٩ . ولقد سمى المكتشف هذا الإنسان ، باسم علمى معناه الإنسان الزنجى (Zinjanthropus) ولقبوه بلقب كاسر الجوز لضخامة فكه وضروسه ويقدرون تاريخه بنحو ستمائة ألف سنة على حسب قياس الزمن ، بمقاييسه المستحدثة والمتعددة . ولئن كانت البشرية موغلة فى القدم بهذا الشكل ، إلا أنه ليس من المحقق أن يوغل التاريخ فى القدم إلى كل تلك الألوف من السنين . كذلك فإنه من المحقق أن الإنسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجرية ، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهوداً فى حيوان منها . فهو فى أقدم عهوده مميز بالعقل والنطق ، وهما صفتان إنسانيتان لا تنفصلان عن استخدام الآلة ولا عن الخاصة المميزة للحيوان الناطق ، من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للإرادة فى حالات المشى والوقوف . ولولا ذلك ، لما استطاع الإنسان

فيما بعد — أن يستخدم السلاح للصيد والدفاع ، والإزميل للنحت والإبداع .

أما الإنسان فى مجتمعات الحضارة ، فلم ينكشف بعد أثر يدل على تاريخ له قبل عشرة آلاف سنة أونحوها . ونعنى بإنسان الحضارة ، ذلك الإنسان الذى عرف الشريعة ونظام المعاملة ، وسخر الحيوان كما سخر الطبيعة لمصالحه المشتركة . ولقد وجدت فى وادى النيل آثار الإنسان المقيم والمستقر ، والذى كان يستخدم الأدوات الحجرية ويعول على محاصيل الأرض بعد معرفته للزراعة فى تدبير طعامه وأسباب معيشته . ولكن المتفق عليه أن هذا الإنسان الأول فى وادى النيل ، لم يكن يعرف الكتابة ، ولم تكن نقوشه على الحجر من قبيل الرموز المصطلح عليها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع ، ولكنها أقرب إلى الطلاسم السحرية أو إلى أشكال الزينة ، وأنها — على هذا — لتعتبر مقدمة لازمة لنشأة الحياة الاجتماعية فى أطوار الثقافة والحضارة . . وكانت أول حضارة هى الحضارة المصرية . . ولقد تتبع (برى) استقراء الحضارات المختلفة التى ظهرت فى العالم ، ابتداء من مصر وشرقاً إلى سوريا فالعراق فالهند فالصين فجنوب آسيا فاستراليا فأمريكا ، واستطاع أن يستخرج منها تلك السمات المصرية التى اتسم بها التاريخ المصرى القديم ، من لدن فراعنة الأسرة الخامسة . وهو فى استقرائه ذلك ، يثبت أن التدرج الجغرافى فى اتجاه الحضارة المصرية إلى الشرق ، يسير مع التدرج الزمنى . فآخر ما ظهر



نفرتاى — ومعناها الجميلة أيضاً أو جميلة الجميلات

لقد خلد الفنان المصرى القديم فيها ، الصورة الإنسانية العابرة والوجه البشرى الزائل فوق الأبعاد الثلاثة المعروفة ،كما يقول (ألبيركامى) .. كذلك ترك لنا النحات المصرى القديم ، فيها تمثال الجمال ليتملى من أراد فى محيا المرأة وجسدها ، وذلك العنصر الإلهى الخالد الذى يبقى منها بعد انحلال المادة وفناء الجسم . . . كذلك ألبسها ثوباً شفافاً تبدو فيه أنوثتها كأنها حلم من ضباب . . أليست جميلة الجميلات ؟ هكذا أسموها . . وانظر إليها ثانية .

من آثار الثقافة المصرية القديمة مثلا ، كان فى أمريكا ، أنأى الأقاليم عن مصر .

وحضارة مصر التى فشت فى العالم ، هى حضارة الأسرة الخامسة . وهى الأسرة التى ظهرت فيها عبارة « رع » إلـٰه الشمس على عبادة «آمون». وانقسمت الأمة المصرية قسمين : إمارة دينية ووزارة سياسية .

وإنا لو ذهبنا إلى أبعد ما استطاع إنسان اليوم التعرف عليه فى الحضارات القديمة ، وهو العصر الحجرى القديم ، لأدركنا أن الإنسان البدائى قد أنجز الكثير باستخدام الذكاء البشرى الفطرى ، للسيطرة على الطبيعة عن طريق استخدام الأدوات والمعدات المختلفة . استطاع ذلك جنباً إلى جنب — مع تقدم التقاليد والطقوس وأعمال السحر ، التى تطورت إلى الأديان المختلفة ، والتى قامت بهدف أن يحافظ الإنسان على المكاسب التى حققها . . وسبيلا إلى سيطرة الكهان ورجال المعابد المختلفة .

وسنذهب هنا معاً ، فى رحلة إلى الماضى ، مع ركب التاريخ ، لنرى مراحل الحضارة القديمة الفرعونية بالذات ، والدور الذى لعبه النيل — معلماً — منذ اكتشفت الزراعة على جانبيه ولأول مرة فى بلاد النوبة ، على ما تحقق منه الكثيرون اليوم . . وقدروا له زماناً تفصلنا عنه سبعة آلاف سنة أو نحوها . ولسوف نتبع ذلك الإطار الذى قدمه «جوردون تشايلد » والتزم به العالم الكبير «ب . برنال » . وفى رحلتنا هذه سنتميز مراحل أساسية هى :

أولا : العصر الحجرى القديم (من حوالى ١٠٠٠٠ سنة ق . م إلى ٥٠٠٠ سنة ق . م)

ثانياً : العصر الحجرى الحديث (من ٥٠٠٠ سنة ق . م إلى ٣٠٠٠ سنة ق . م)

ثالثا : العصر البرونزى (من ٣٠٠٠ سنة ق . م . إلى ١٢٠٠ سنة ق . م) .

رابعاً : العصر الحديدى الأول (من ١٢٠٠ سنة ق . م إلى حوالى ٧٠٠ سنة ق . م)

ويقوم هذا التقسيم عموماً . على أساس التمييز بين هاتيك المراحل على أساس خواص قوى الإنتاج عامة أو على أساس المعادن السائدة . ولقد كانت الزراعة من أهم العوامل التى حفزت إلى الكشف عنها واستخدامها بداءة ، ثم كانت حتمية للحضارة ومؤسساتها كبناء المعابد والتماثيل وعدد الحرب والقتال . . وغير ذلك .

* * *

وبرغم ما قطعنا فى التاريخ وما قبل التاريخ فى الصفحات الماضيات أشواطاً بعيدة ، إلا أن التساؤل الذى بدأنا به — وهو من أين أتى البشر إلى وادى النيل أصلا — لم يزل قائماً . . وبداءة نؤكد ، أن كل ما يقال هنا ، بهذا الشأن ، هو تخمين علمى وافتراضات ليس إلا . . لم يقل العلم فيها قولته الثابتة بعد .

ولنعد الآن بالزمن إلى الوراء مرة أخرى ، لنرى أولئك الذين صنعوا هذا كله ، عندما جاء هؤلاء الناس لأول مرة إلى النهر ، ذلك لأنهم على حد قول بعض العلماء، كانوا مهاجرين نزلوا أرض النهر من مناطق أخرى . .

كان هذا فى نهاية عصر الجليد ، وقد تغطى شمال أوربا بالثلوج . وكان شمال أفريقيا ممتلئاً بالخضرة ، وأرضه مغطاة بالحشائش ، والأمطار غزيرة . وعلى حين كان الماموث (Mammoth) وأسلاف الفيل والخرتيت والرنة (Reindeer) ترى فى جنوب إنجلترا وفرنسا ، كان شمال أفريقية جنة تعيش فيها وتطعم قطعاناً كبيرة من الظباء . . وبذلك كانت منطقة واسعة للصيد . . قصدها الصيادون والرعاة .

ثم . . انتهى عصر الجليد فى أوربا . . فجفت الأمطار فى شمال أفريقيا وبدأ فى الأفق تغير مخيف .. زحفت صفرة الصحراء الكالحة فغطت المنطقة . . وواجه الصيادون تحدياً مرعباً . . الموت أو الهجرة . . وهاجر البعض شمالاً . . وهاجر البعض جنوباً . . كذلك اتجهت أنظار بعضهم إلى الشرق ، فلقد كانوا يعرفون أن فى الشرق ، أرضاً مخضلة جاءهم صيادوهم من قبل ، بأنبائها .. ورحلوا إليها . . إلى أرض النيل . . فماذا وجدوا . ؟

كانت هناك رقعة متسعة تعلوها نباتات نامية ، ولكنها ليست أرض المروج النافعة .

كانت مستنقعات مقفرة موحشة ، تعلوها سحابات من البعوض .

ذلك هو النيل عند مصبه أو فيما أصبح بعد ذلك دلتاه ، عبارة عن حرشى لاشكل له ، مستنقع واسع يضيع فيه مجرى النهر ، غابة من البوص والحشائش ، التى ترتفع لأكثر من خمس عشرة قدماً التماسيح المخيفة وسطها متربصة .

ولم يكن من سبيل لينكص هؤلاء المهاجرون على أعقابهم . النيل بعيداً على تلك الأحراش إلى حيث استطاعوا أن يستنبتوا وعرفوا الزراعة على جانبيه عند النوبة ، منذ قرابة السبعة آلاف ، ثم كانت الحضارة الأولى . .

ذاك قول ، قال به بعض العلماء .

وهناك قول آخر ، بأن سكان وادى النيل الأول ، إنما هاج أواسط أفريقيا وشمالا حتى بلغوا بلاد النوبة حيث استوطنوها ، واكتشفوا هناك وأسسوا حضارتهم الأولى .. وغير هؤلاء وهؤلاء ، يقول بهجرة المصريين الأقدمين من بلاد آسيا إلى وادى النيل .

وهكذا ، آراء لم يبلغ العلم فيها مبلغ اليقين . . والله من بعد ومن قبل ، بكل شيء عليم . .

ويبقى أن نقول ، إن تلك مشكلة الإنسان فى كل مكان ، لم يزل ير علم الله علما . . وهكذا نجد الإنسان المتحضر ، وبرغم ما بلغ من التقدم والحضارة — فلقد سادته وتسوده حتى اليوم سحب من ضباب

بمصيره و بمعرفته للحياة بداية ونهاية، وغاية وحقيقة . . ولقد طوف الإنسان من أجل ذلك ، شرقاً وغرباً . . عاش فى الغابات ونما على ضفاف الأنهار، وأقام العمار واقتحم الصحراء والرمال ، ونشر فى الدنيا الأضواء والظلال ، ورسم العلوم والمعارف . وأرهق عقله فيما يرى حوله وذهب إلى وراء ما يرى، فراعه باب المجهول وحاول بكل ما أوتى أن يعرف سر الحياة بداية وغاية . . وجعل كل ما حصل من علم ومعرفة فى خدمة هدف واحد، هو أن يعرف نفسه. . لماذا جاء ؟ ومن أين جاء ؟ ولكنه كان فى كل مرة يحاول ، يقف أمام صخرة صماء . . وقد يلوح له فى بعض الأحيان أنه اقترب من سر الكون ، فينشط ساعياً ولاهثاً . ثم يتبين له أنه إنما كان يلهث وراء سراب ، وإذا الحائط مرة أخرى صماء . .

كان ذلك ، منذ البدايات الأولى للحضارة الأولى على الأرض . . ولم يزل هذا فى أوج حضارة القرن العشرين ، ، وسوف تبقى إلى أن يشاء الخالق . .

* * *

وبعد أن سمحنا للخيال أن يسرح بنا بعيداً ، ولبعض الوقت، عن جوهر بحثنا هذا ، . . وإلى النهر ومن هم حول النهر ، عودتنا . . جرى النهر ، من بعد أن تكوّن الصخر. . أو الأرض بما فيها من طباق تختلف نوعاً وشكلا . .

وإذا ما توفرت المياه العذبة فى مكان ، فلابد للحياة أن تزدهر من حوله . . والإنسان بطبعه اجتماعى . . ومع الحياة تواجده . . فجاء إلى النهر ، يحيا على شطيه . .

وعلى شاطئ النيل ، اكتشف الإنسان المصرى الأول ، الزراعة . . وأسس الحضارة على مر عصور طويلة ، لم يبتعد فيها عن النيل . ولقد أتت بعد الزراعة وزمان اكتشافها عصور زاهية حضارياً ، مؤسسة فى الأصل على اكتشاف الزراعة ، والتفنن فى حل مشاكلها ، مما خلق فى حد ذاته علامات حضارة كثيرة ، ومن بينها اكتشاف المعادن واستغلال المناجم . . . ويقول « فارنجتون » مشيراً إلى الثورة الصناعية التى بدأت فى العصر الحجرى الحديث الذى اكتشفت فيه الزراعة على جانبى النهر . . ما يلى :

« عندما يدرس التاريخ كما ينبغى ، كى يفهم الإنسان القصة الحقيقية للمجتمع البشرى كأساس لحياته الفكرية ، سيكون العرض المفصل الواقعى لطبيعة هذه الثورة العظيمة فى سيطرة الإنسان على بيئته ، درساً من أهم الدروس الأساسية . وسيتآلف العلم والورشة والمحاضرة والمكتبة لجعل مغزى هذين الألفى عام الحيوية (استدامة العصر الحجرى الحديث) يرسب فى أعماق الوعى التاريخى للبشرية . فهذه الثورة التكتيكية هى الأساس المادى للحضارة القديمة ، وفى تاريخ الإنسان لايوجد تغير يمكن

مقارنته بذلك ،فيما بين هذه الثورة والثورة الصناعية ، فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد . . »

وتلك الثورة التى يعنيها فارنجتون ، نبتت بذورها على ضفاف النيل بعد أن جرى النهر وعاش على ضفافه الإنسان المصرى القديم :

وهكذا جرى النهر . :

ونطق الحجر

قال أحمد شوقي :

« جمعت الطبيعة عبقريتها فكانت الجمال . وكان أحسن الجمال وأشرفه ما حل فى الهيكل الآدمى وجاور العقل الشريف والنفس اللطيفة والحياة الشاعرة . فالجمال البشرى سيد الجمال كله . . لا المثال البارع استطاع أن يخلعه على الدمى الحسان ولا للنيرات الزهر فى ليالى الصحراء، ماله من لمحة وبهاء ، ولا لبديع الزهر وغريبه فى شباب الربيع ، ماله من بشاشة وطيب . وليس الجمال بلمحة العيون ولا ببريق الثغور ولا هيف القدود ولا أسالة الخدود ، ولا لؤلؤ الثنايا وراء عقيق الشفاه . ولكن شعاع علوى يبسطه الجميل البديع على بعض الهياكل البشرية يكسوها روعة ويحيلها سحراً وفتنة للناس » .

قال شوقى هذا فى عام ١٩٣٥ بعد الميلاد . .

فياترى بماذا رأت نفرتارى فى تمثال زوجها وحبيبها رمسيس بعد أن صاغه الفنان الفرعونى منذ ما يقرب من هذا التاريخ ولكن قبل الميلاد .

وياترى ماذا قال رمسيس عن صورة زوجته جميلة الجميلات بعد أن نحتها المثال البارع فوق الصخر الجلمود ؟ أكان الهيكل الآدمى أكثر سحراً

وفتنة للناس ، أم كان الهيكل الصخرى . . بالقطع كانت تفرتارى بجوار زوجها رمسيس ، بلحمها ودمها أجمل وأروع مما فعل المثال البارع . . وما فعل هذا إلا أن أنطق الحجر بما نقش عليه ليبقى على مر الزمان يحكى قصة الأمس . ويصور لنا ملامح الجدود .

قصة حب بين زوجين وحبيبين . . بين ملك وزوجة ملك يعشق الواحد منهما الآخر ، حتى لقد أبى حبه لها أن ينفرد بتخليد الفنان له على واجهة واحدة من الأعمال العظيمة التى تمت فى عهده « معبد أبو سمبل » فأجلسها معه بين الآلهة فى محراب الخلود . . ودعا الفنان المبدع أن ينحت للزمان وللفن آيات فى الصخر الجلمود . وإنا لنراهما اليوم بتلك الملامح البارزة التى أنطق الفنان الصخر بها . نراهما ونتخيل الملك المحب يناجى محبوبته . بما قال شاعرهم فى ذاك الزمان . من قول فى الغزل على ما كانوا يتصورونه . . .

إن غرام حبيبتى يقفز على شاطئ الغدير :
وفى الظلال تمساح رابض .
ولكننى أنزل إلى الماء وأوجه الأمواج .
ويشتد بأسى فوق الغدير .
ويكون الماء هو والأرض تحت قدمى سواء .
لأن حبها يملأ قلبى قوة .
وإذا قبلتها انفرجت شفتاها .

وسكرت من غير خمر .

كذلك فنحن نراهما معاً آلهة بين الآلهة، على واجهة معبدهما ، ونقرأ فى عينيها الحب والحنان كله لزوجها، ونتخيلها تقول كذلك كما قال شاعرهم فى ذاك الزمان :

أنا أختك الأولى . .

وأنت لى كالروضة . .

التى زرعت فيها الأزهار . .

والأعشاب العطرة جميعاً . .

وأجريت فيها غديراً . .

لكى تضع فيه يدك . .

إذا ما هبت ريح الشمال الباردة . .

إن سماع صوتك ليسكرنى . .

وحياتى كلها فى سماعك . .

وإن رؤيتك . . .

لأحب إلى من الطعام والشراب .

كتب الشاعر القديم منذ ثلاثة أوأربعة آلاف سنة ذاك القول العذب الجميل، وسجل الكاتب، ونقش الفنان على الحجر، فأنطق الحجر بملامح ذاك الحب العظيم على وجهى رمسيس وزوجته (الجميلة أيضاً) . . ودعنا نسأل الزمان وقد باعد ما بيننا وبينهم بآلاف السنين . . ماذا يقول

شاعر اليوم تعبيراً عن الحب ؟ . . وكيف يعبر فنان اليوم إذا ما نحت أو رسم استظهاراً للعاطفة النبيلة التى تربط ما بين قلبين .. ثم، ألا يهرع كل من أحب اليوم إلى مصور أو رسام ليسجل له ومحبوبته ذكرى جميلة، يحتفظان بها ما طالت بهما الأيام..ليس فى الحياة جديد . . مافعله الجدود نفعله نحن أيضاً اليوم . ألايذكرنا هذا بأنه لاجديد تحت الشمس فعلا . وإذا ما كنا اليوم ندرك هذا ، فماذا نقول فيمن أدركه منذ نحو أربعة آلاف من السنين أو تزيد. فى ذاك الزمان المنصرم، شكا عالم فى عهد سنوسريت الثانى — ٢١٥٠ ق . م . — من أن كل ما يمكن أن يقال قد قيل من عهد بعيد .. ومن أن الأدب لم يبق له ما يقوله إلا التكرار . . ثم قال فى أسى وحسرة : « ألاليتنى أجد ألفاظاً لم يعرفها الناس وعبارات وأقوالا بلغة جديدة لم ينقض عهدها . وليس فيما تلوكه الألسن أقوال لم تصبح تافهة مملة معادة ، ولم يقلها آباؤنا من قبل » .

* * *

رمسيس الثانى . . هذا الملك العظيم تمت فى عهده أعمال عظيمة . . فى المعمار وفى الفن ، فى الحرب وفى النحت ، فى الأدب وفى الشعر . . تجلت فى عهده أعمال تمجد الفن فى إبانه ، وإنجازات فى الصلد الأصم شاهدة على قدرة الإنسان المصرى فى قديم زمانه . .ولم يكن للحجر فى فى حياته من قيمة إلا ما تمنحه إياه يد الفنان وإحساساته ومواهبه الخلاقة. لقد خلف رمسيس الثانى أوسيزوستريس ، فى قول الأقدمين ، من الأعمال

ما جعله حقًّا جديراً بالتكريم وعرفان الجميل على الإنسانية، وقد أورثها شيئاً أبقى من سلطانه مهما كان ذاك السلطان ، جائراً أم عادلاً . .

ولكننا إذا ما اعترفنا بفضل ذلك الملك فى تشييد العمران وتشجيع الفنان، فلابد كذلك ألا نجهل العوامل التى يسرت له تلك الأعمال ، وساعدته على تحقيق حلمه فى الخلود . . وتلك أعمال تضرب جذورها فى بيداء التاريخ البعيد وتتداخل ثمرها وفروعها وتتعدد، متفاعلة متعاونة على خلق ما اتفق الناس على تسميته بالحضارة، وما مهد وأعان ملكنا هذا على أن ينثر تماثيله على طول البلاد وعرضها، وأن ينحت فى الصخر لآلهته معابد وهياكل . . وأن يشيد لحياته الثانية ما يتناسب وإياها من عظمة بقيت على الدهر وعمل عزعلى الزمان مناله .

ما هى تلك العوامل التى نعنى ؟ . .

إنها مناحى الحياة المختلفة . . إنها العقيدة والدين . . إنها العلم والفن . إنها الحياة الاجتماعية ما بين إنتاج وفائض إنتاج وصراع طبقى انساقت إليه الحياة بطبعها وطبيعتها ، ومعها الأنسان منذ هجر حياة جمع القوت إلى مشاكل إنتاجه . وإذا كان ذلك هو بداية السبيل، الذى مهد لرمسيس أن يأمر الفنان فيرسم والنحات فينحت والكاتب فيكتب ويسجل نقشه على الحجر ، والصانع أن يصنع كل ما يحتاجه فى سلمه وحربه . . إذا ما كانت تلك هى البدايات ، فما أحرانا أن نتتبعها من مهدها، ولسوف

نجد أن المنابع الأساسية للمعرفة البشرية إنما تتمثل فى مصدرين اثنين ، هما :

(١) **تطور قوى الإنتاج**، وعنه انبثقت مجموعة العلوم التى يطلق عليها اسم العلوم الطبيعية وتتضمن علوما كالطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان والنبات والطب والحساب والفلك . كذلك ترتبط بها علوم التكنيك كالهندسة الميكانيكية والصناعات الكيميائية . . إلخ .

(٢) **تطور الصراع الطبقى**، وعنه انبثقت مجموعة العلوم التى يطلق عليها اسم العلوم الاجتماعية كالاقتصاد والتاريخ وعلم النفس .. إلخ .

هذا ، وإن يكن ذلك التقسيم فى حقيقة الأمر ذا طابع أكاديمى إلى حد كبير ، إذ تظل بعض المعارف البشرية الأساسية كالرياضيات والفلسفة تستمد ازدهارها من المنبعين أو المصدرين الأساسيين معاً . ثم كانت الفلسفة ، بعد ذلك ، بمثابة الاحتضان الأعلى للعلوم الطبيعية والاجتماعية معاً ولم تكن صادرة عن أحد المصدرين فحسب . . ولم يزل أمل الإنسانية فى مستقبلها ، أن تنقض الجدر القائمة عازلة بين العلم الطبيعى والعلم الإنسانى أو الاجتماعى بقصد أن يخفف الثانى من غلواء الأول . .

ولنذهب الآن ننظر فى بعض مناحى تلك المعارف البشرية التى بدأت حابية على بساط الزمان منذ أن تطور الإنسان ونضج عقله واتخذ سبيله فى هذه الحياة عجباً ، يتطلع حوله ويقتبس من الطبيعة هاديته ومعلمته ،

تارة تقسو وتارة تحنو ، حتى تمكن الإنسان من أن ينتج فائضاً من القوت يوفر به الحياة لأيد تصنع وعقل يفكر أو يجد الفراغ ليفكر . .

الناحية الاجتماعية :

إذا تطورنا مع الناحية الاجتماعية منذ البدايات البعيدة فى حياة البشر ، وجدنا أنه فى العصر الحجرى القديم كان المجتمع ينقسم إلى عدة مجموعات اجتماعية صغيرة متفرقة تقوم فيها النساء بجمع القوت ، ويختص الرجال بصيد الحيوان ويعيش الكل حياة المشاع البدائية . إلا أن النساء كن العنصر الدائم فى كل عشيرة وهن ضمان استمرارها وإليهن ينتمى البنون . كانت تلك الجماعات تسمى بالعشائر الطوطمية . بمعنى أن كل عشيرة تتخذ لها طوطماً أو معبوداً . وفى ظل مجتمع يعيش فيه الإنسان هكذا متطفلا على الطبيعة الجامحة كان لا بد أن ينشأ السحر كى يعوض فجوات عجز التكتيك البدائى . وفى مثل هذه المجتمعات البدائية ، من المحتم أن تكون طقوس وحفلات العيد ودفن الموتى ظاهرة اجتماعية أساسية . .

ولكن أين تقام مثل تلك الطقوس ؟ ! لا بد من مكان له قدسيته واحترامه يوضع فيه الطوطم وتقدم له القرابين وتقام بين يديه الطقوس والحفلات . . مثل ذلك المكان هو ما تطور فيما بعد ليكون المعبد .

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الحجرى الحديث ، فإننا نجد أن الإنسان قد استقر نوعاً ما ونشأت القرية كظاهرة اجتماعية فى اتجاه ذاك الاستقرار .

ولقد تم هذا كنتيجة من نتائج اتجاه الإنسان إلى الزراعة التى اعتبرت السمة الأساسية لذلك العصر. ولقد تميزت حياة القرية بنشأة بيوت الطين والمنازل الخشبية . . وتكاثرت أنواع الحفلات والطقوس الدينية التى كانت تقام . فنجد منها حفلات الزواج التى تعرف باحتفالات الخصوبة، والتى كان يستخدم فيها التزاوج البشرى بطقوس خاصة تهدف إلى تشجيع المحاصيل على التكاثر واسترضاء الطبيعة وإغرائها على مطاوعة الإنسان ورفع نكباتها عنه، كما أصبحت احتفالات الأمطار والحصاد من الطقوس والحفلات المميزة لذلك العصر الحجرى . كذلك كان من الطبيعى أن يصاحب الاستقرار فى القرية واستقرار العمل الزراعى، الاهتمام أيضاً بأنواع من الأعمال كانت فى غاياتها أسس علم الفلك . ذلك الذى لم يكن من الممكن أن يوضع بينه وبين التنجيم حد فاصل آنذاك . فالاعتبارات العملية والنزعات الدينية كانت مختلطة . وإذا عرفنا أن علم الفلك ظل مختلطاً بالتنجيم حتى أواخر عصر النهضة — أدركنا صعوبة فصل الفلك بالذات عن علوم التنجيم فى عالم يدين فيه الإنسان بفكرة الولاء لإله بدائى موجود فى السماء يحرك الكواكب والنجوم كما يشاء . . وهنا يمكن القول إن الإنسان فى هذه المرحلة استطاع أن يبدع أفكاره الأسطورية لأول مرة عن أصل الخليقة . .

وإذا ما مضينا فى رحلة التاريخ نقلب صفحاته ، وصلنا بعد ذلك إلى العصر البرونزى . . وهو عصر يعد بجدارة بداية العهد الحضارى الحقيقى

بمشاكله المعقدة . ولقد واجه الإنسان المهمة الحضارية فى حياته بشجاعة ومقدرة، مكنته من أن ينجز فعلا أعمالا تبدو مدهشة بالقياس إلى مستوى المعرفة القائم آنذاك . وقامت الدولة، نابتة من بذرة حاجة مصر القديمة إلى تنظيم مركزى للرى ليكون فى خدمة الزراعة، ثم تكون هذه بدورها فى خدمة الدولة . ومن هنا تجاورت القرى . وتمركزت المدن . . وتحضرت معتمدة على فائض من الإنتاج الزراعى وفير . . بمعنى أن المدينة هى نتاج الحضارة وليست سبباً لها . وإذ نشأت المجتمعات الطبقية وتم الانقسام الاجتماعى كان من الطبيعى أن تؤتى أكلها مادياً وفكرياً وروحياً . . الآلهة والمعابد ، الحكومة والملوك الذين ينتمون إلى الآلهة أو هم آلهة على الأرض .واقتضت ضرورات العصر اختراع الكتابة . . كما تطلبت قيام الحروب على نطاق واسع نسبياً . وأدت الحروب إلى هزيمة دول وانتصار أخرى، وكان مع النصر والهزيمة نصر للآلهة أيضاً وهزيمة . . ومع الانتصار تقام الطقوس الدينية والاحتفالات قرباناً للآلهة وشكراً وعرفاناً .. وتبنى المعابد ويتفنن البانون فى تنسيقها وإبداعها ويوضع فى خدمتها كل فن وعلم . . وسجلت على جدرها أحداث الزمان ووقائع العصر ، فكانت مكاناً للعبادة كما كانت مكاناً للإعلام والتسجيل للتاريخ . وكانت المعابد فى ذلك العصر أيضاً مكاناً للاستشفاء والعلاج إذ ظهرت لأول مرة ظاهرة احتراف الطب كمهنة متخصصة فى يد الكهنة وخدام المعبد . . ولقد ارتبطت الممارسة الطبية ارتباطاً وثيقاً بالطقوس الدينية. وشيئاً فشيئاً تكاملت نظرية

مؤداها أن المرض ليس إلا روحاً شريرة تسكن الجسد . وعلى هذا كانت مهمة الطب الأولى ، هي البحث عن الطرق التي تؤدى إلى طرد الأرواح الشريرة من الجسد . ولقد ظلت تلك النظرية مرتبطة بالكهان فى المعابد وامتيازاتهم ، بحيث كان أى تحد لها لا بد أن ينتهى إلى الاتهام بالخيانة أو الهرطقة . وكانت عمليات التحنيط تتم فى المعابد إذ هى دور العلاج فى ذاك الوقت . ولقد قيل إن الطب فى مصر ، لم يتقدم كثيراً برغم عظم الإنجازات التى بلغها المصريون الأول فى فن التحنيط . والواقع أن الطب لم يتأثر كثيراً بالمعرفة التى تجمعت لدى المحنطين الذين كانوا يقومون بعملهم فى المعابد إذ أن هؤلاء كانوا يمثلون حرفة متميزة ومتخصصة ومنفصلة تماماً عن طب الكهنة . . وليس معنى هذا ، أن فن التحنيط نفسه لم يؤد إلى معلومات علمية مفيدة فى علم التشريح ، غير أن هذه المعلومات ظلت بعيدة عن إفادة الطب الباطنى الذى يقوم به كهنة المعابد . وفضلا عن هذا ، فقد انحصر التحنيط فى الطبقة الحاكمة وارتبط ببواعث دينية واضحة ، وأساطير جعلت من الصعب تداول المعلومات التى لدى المحنطين .

ومع موكب التاريخ ، نبلغ العصر الحديدى الأول . . وما كان اكتشاف خام الحديد لاشك ، إلا عنصراً محولاً فى التطور الاجتماعى .. واتسم العصر بوجود فائض إنتاج وآلات قابلة للتبادل التجارى على نطاق واسع . وفى

ذلك العصر، نشأت الحروف الأبجدية فى صورتها المبسطة نسبياً . كذلك ظهرت النقود المعدنية كظاهرة مرتبطة باتساع التجارة بين المدن . . وأيضاً نشأت الفلسفة والأدب، كتعبير عن وضع طبقى محدد . . وفى ظل تلك الظروف تطورت العلوم العقلية تطوراً حقيقياً، وكبيراً وعلى وجه التخصيص الرياضيات والفلك والطب . تلك المجموعة من العلوم التى سميت أحياناً بالعلوم النبيلة والتى جاء نموها وازدهارها على يد الطبقات السائدة المتفرغة للبحث والدراسة والتسجيل والكتابة .

* * *

الدين :

يرى كثير من العلماء أن الأساطير هى أصل الدين بين الهمج، وهو رأى لايتصف بالقطع حتى اليوم، لأن العقائد الهمجية قد تلبست بالأساطير فى جميع القبائل الفطرية، فلايسهل من أجل ذلك أن يرفض القول كله بالعلاقة بين الأسطورة والعقيدة، ولكن لايسهل من جانب آخر المطابقة بين العقيدة والأسطورة فى كل شىء وفى كل خاصة. ذلك لأن العقيدة قد تحتوى الأسطورة ولكن الأسطورة لا تحتويها . إذ يشتمل عنصر العقيدة على زيادة لايشتمل عليها عنصر الأسطورة، وهى زيادة الإلزام الأخلاقى والشعور الأدبى بالطاعة والولاء ، والأمل فى المعونة والرحمة من جانب الرب المعبود .

والأكثرون من ناقدى الأديان يعللون العقيدة، بضعف الإنسان بين

مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعية والأحياء . فلا غنى له عندئذ عن سند يبتدعه ابتداعاً ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات فى شدته وبلواه . ولكن فى واقع الأمر ، أن الضعف لايعلل العقيدة الدينية كل التعليل، لأنها تصدر كذلك من غير الضعفاء بين الناس .

ولم تكن أرباب الأمم الماضية فى جميع أطوارها نوعاً واحداً أومثلا لفكرة واحدة ، ولكنها أنواع شتى يمكن أن تتجمع فى الأنواع التالية :

١ — أرباب الطبيعة أو الأرباب التى تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها، كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والأنهار والشمس والقمر والسماء والربيع .

٢ — أرباب الإنسانية، وهى الأرباب التى تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والمرهوبين ويحسبهم عبادهم من القادرين على الخوارق والمعجزات .

٣ — أرباب الأسرة ، وهم الأسلاف الغابرون .

٤ — أرباب المعانى، كرب العشق ورب الحرب ورب الصيد . . وما إليها .

٥ — أرباب البيت ، كرب الموقد ورب البئر وربالطعام . .

٦ ــ أرباب النسل والخصب .

٧ ــ آلهة الخلق، التى ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والحيوان .

٨ ــ الآلهة العليا ، وهى ما تضمن السعادة الأبدية للأرواح فى عالم البقاء .

وهذه الطبقة من طبقات العبادة هى أرقى ما بلغته الإنسانية فى أطوارها المتتالية ، واستعدت بعده للإيمان بإله واحد لجميع الأكوان والمخلوقات بغير استثناء أمة من الناس .

ولقد وصل المصريون القدماء إلى التوحيد . وبقيت أسماء الإله الواحد متعددة على حسب التعود فى مظاهر التجلى المتعددة لذلك الإله ؛ فكان أوزيريس هو إله الشمس باسم رع ، وهو الإله الخالق باسم خنوم، وهو الإله المعلم الحكيم باسم توت، وهو فى الوقت نفسه إله العالم الآخر وإله الخلق أيضاً حيث ينبت منه الزرع . ويصورونه فى كتاب الموتى جسداً راقداً فى صورة الأرض تخرج منه السنابل والحبوب . وكانوا بعد كل هذه الأطوار يرسمون أوزيريس ، على مثال مومياء محنطة ويردون أصله إلى العرابة المدفونة كأنهم لم ينسوا بعد عبادة الإله الواحد الخالق للكون كله ــ عبادة الموتى أو عبادة الأسلاف .

وقد امتزجت عقيدة الروح بكل عقيدة دينية بعد أطوار العقيدة

البدائية وفى أثنائها . فعبادة الأسلاف لاتخطر على بال ما لم تخطر معها فكرة بقاء الروح ، وإنما تترقى الأنماط على حسب الترقى فى المعارف والمعقولات . فليس من شك اليوم ، فى أن التطور فى الديانات محقق لاشك فيه، ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات، بل كان على سلالم مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من ناحية أخرى .

ولقد تطورت فكرة الروح عند الفراعنة، وظلت تتطور حتى انقسم مفهوم الروح إلى شيئين مختلفين تماماً :

أولا : تحولت روح الرجل القوى إلى روح البطل الأسطورى ثم فى تطورها تحولت إلى روح الإله أو المعبود . بمعنى أنه فى عصر الحضارة القديمة والأديان البدائية، لم تبتكر أساطير ولاجدت خرافات بقدر ما كان هناك من تنظيم لخرافات ما قبل الحضارة التى ورثوها وثبتوها، فخلقوا بذلك لاهوتا وعقائد لاهوتية جامدة ثبتوا قواعدها فى مجتمعهم، بانشاء مؤسسات دينية أو ما يسمى بالمعابد، وهى ذات مصالح دنيوية واضحة مرتبطة بالطبقة الحاكمة .

ثانياً : عزل الروح عن أصلها الإنسانى وتحويلها إلى قوة طبيعية غير منظورة . وعموماً، فإنه بمجرد أن استقرت فكرة الروح والعقيدة الروحية عند الفراعنة ، وأصبحت الطقوس أكثر انتظاماً ، كان من الضرورى أن تنتهى الأمور إلى الأديان البدائية .

ولعلنا ممافات، ندرك مغزى تحول روح الرجل القوى القادر فى

العشيرة أو فى التاريخ القديم إلى روح الإله . . حتى أضحى مثل ذلك الرجل هو والإله شيئاً واحداً فى كثير من الأحيان . كان ذلك فى الحقيقة، نشأة فكرة الفرعون فى مصر ومصدر تأليهه . . ثم بنشأة هذا الفرعون ، نشأت معه الحكومة بمعناها الحقيقى . وتؤكد حقائق التاريخ أن فرعون لم يكن فى المبدأ إلا رجلاً تميز بالقوة والقدرة، فاختارته عشيرته معبوداً لها وألهته فى احتفالات كاحتفالات الحصاد الزراعى أو غيرها . . فكان فيها كملك . . وهكذا تحول ملك المحصول إلى ملك زمنى عندما تحول المجتمع من العصر الحجرى الحديث إلى العصر الحضارى . وهكذا يرجع المؤرخون نشأة الفراعنة فى مصر .

ومن التطور ، أن الهمجى الذى جهل أسرار التناسل، قد يتخذ له جداً معبوداً يتمثله فى شبح الأسد أو الكلب أو الصقر أو العقاب، ولاينكر أن يكون أبوه جسداً وروحاً بغير مجاز . أما من تحضر وتهذب واستطاع أن يستطلع أسرار الخليقة بعض الاستطلاع ، فإنه يجعل أباه روحاً تتجلى فى الشمس ، ويفرق من ثم بين أبوة الجسد وأبوة الروح . وعلى هذا المثال ولاريب، زعم الكهنة أن هذا الفرعون أو ذاك من الفراعين ابن الشمس أو ابن أوزيريس ، وإن لم يتضح فى الإدراك أنهم ينكرون أبوته الجسدية المسجلة بالميراث ، وبحقها — يجلس على عرش أبيه . معنى ذلك أن عبادة الشمس تستلزم درجة من الثقافة العلمية والأدبية لم تتيسر فى أقدم العصور التاريخية .

وبالدخول في عبادة الشمس، ارتفع العقل البشرى بفكرة الخلق من أفق الأرض القريب إلى الآفاق العليا فى السموات . . وكانت بذلك مقدمة للتوحيد، وأغلب الظنون المدعمة بالقرائن المعقولة، هى أن مصر بدأت بتوحيد الدين كما بدأت بتوحيد الدولة وكانت ديانة الشمس بعد ذلك قنطرة أخيرة بين مذاهب التعديد فى الآلهة ومذاهب التوحيد .

ولقد تصدى للنظر فى الدين فحول من مفكرى القرن الماضى . ولو اطلعت على التعاريف الشتى التى وضعوها للدين لأيقنت بأن الدين لا يزال كما عهدناه فى الإنسان الأول ، ظاهرة مرتكزة على الاعتقاد وكان تطورها بتطور عقل الإنسان رهيناً . وإليك كلمات استجمعها « بنيامين كيد » عن حقيقة الدين ، قال بها مفكرون اختلف بهم الزمان والمكان :

يقول « سنيك » . . الدين معرفة الله والتشبه به .

ويقول «كونت» . . الدين عبادة الإنسانية . .

ويقول «إسكندراين» . . إن العاطفة الدينية يكونها الانفعال المادىٔ مقروناً بالخوف وحساسية الخضوع للعظمة .

ويقول هكسلى . . الدين إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ، ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة .

وهو فى الإسلام . . المعاملة

وهكذا . . وهكذا . . ثم نعود إلى مصر القديمة وإلى الفراعين . .

لقد كان الدين فى مصر القديمة من فوق كل شىء ومن أسفل منه كما يقول« ول ديورانت»، وحقاً ذاك، فالدين فى مصر مبتدئ من الطواطم حتى اللاهوت. وأثره واضح جلى فى كل شىء وبخاصة الأدب والفن . ويقولون إنه ليس بالإمكان دراسة المصرى دون دراسة آلهته .

بداية الخلق عند المصرى القديم هى السماء . والنيل ظل أكبر أربابه دون مراء، ولكن هذا لايتنافى مع اختصاص كل إقليم بإله . وكان القمر إلهاً، ولعله أقدم ما عبد من الآلهة فى مصر ولكن الشمس كانت أعظم الآلهة وكانت تعبد على أنها الإله الأعلى رع أو الإله حورس . وكانت الروح الدينية عند المصريين القدماء بعامة خصبة وغزيرة، بلغ من خصبها أن المصريين لم يعبدوا مصدر الحياة فحسب بل عبدوا مع هذا المصدر كل صورة من صور الحياة. وظل المصرى يقيم لمعبوداته المعابد ويقدم القرابين زماناً طويلا . وكانت الآلهة من الحيوان أكثر تنوعاً بين المصريين من آلهة النبات، وكانت هذه الآلهة من الكثرة بحيث غصت المعابد بها وكأنها معرض حيوانات صاخبة . فكان العجل والتمساح والصقر والبقرة والأوزة والعنزة والكبش والقط والكلب والدجاجة وابن آوى والأفعى من الآلهة، وتركوا بعض تلك الدواب تجوس فى أركان المعابد ولها من الحرية ما للبقرة المقدسة فى الهند حتى هذه الأيام .

بعد ذلك تحولت الآلهة إلى آدميين؛ وإن تكن ظلت محتفظة بصورتها الحيوانية المزدوجة وبرموزها . . فكان آمون مثلاً يمثل بأوزة أوبكبش

وكان رع يرمز له بعجل، وهكذا.. وكانت المعابد وجدرانها سجلات تاريخية تعكس لنا اليوم صور تلك المعتقدات والعبادات حتى أغربها مثل العبادة الجنسية التى تظهر كثيراً فى الرسوم والنقوش على جدران المعابد لحيوانات كالماعز والعجل بقضبان منتصبة رمزاً للقدرة الجنسية الخالقة ..

ثم . . صار الآلهة بعد ذلك بشراً سوياً . . أو صار البشر آلهة إن شئنا الدقة . وهؤلاء هم البشر المتفوقون رجالاً ونساء، ولعل ذلك يعيد إلى أذهاننا ذكر آلهة اليونان فيما بعد . .

وكان أعظم آلهة مصر طرًّا — رع أو آمون كما كان يسميه أهل الجنوب، وأوزيريس وحورس .. ولماتقدم العهد، امتزج رع وآمون وفتاح فأصبح الكل فى إله واحد أعلى . . وكان الملك أو الفرعون نفسه إلهاً ، ويسمى باسم ابن أمون — رع وهو لايحكم مصر بحقه الإلهى فحسب، بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلهى، فهو إله رضى أن تكون الأرض موطناً له إلى حين . . وهكذا كان رمسيس الثانى . . إلهاً . . نصب نفسه على واجهة معبد أبو سمبل بين الآلهة الآخرين . كذلك كان الملك هو الرئيس الدينى الأعلى، يرأس المواكب والحفلات العظيمة التى تخرج من المعبد أو تقام فيه تمجيداً للآلهة فى أعيادها . .

ولقد كان الكهنة دعامة العرش الذى يقوم بالحق الإلهى، ومن ثم نشأت طبقة أصبحت على مر الزمن أعظم ثراء وأقوى سلطاناً من أمراء

الإقطاع ، بل ومن الأسرة المالكة ذاتها . وكان الكهنة في المعابد يقتاتون من القرابين التي تقدم للآلهة كما كانت لهم موارد عظيمة لمن موارد ممتلكات المعابد ومن صلواتهم وخدماتهم الدينية .

ويصف « هيرودوت » كهنة المعابد عند الفراعنة فيقول : وهم أكثر الناس اهتماماً بعبادة الآلهة ولا يتحللون قط من المراسم الإلهية . . يلبسون ثياباً من نسيج الكتان نظيفة حديثة الغسل على الدوام . . ويختتنون حرصاً منهم على النظافة ، لأنهم يعتقدون أن النظافة أفضل من الجمال . ويحلقون شعر أجسامهم بأجمعه مرة في كل ثلاثة أيام ، حتى لا يجد القمل أو غيره من الأقذار مكاناً في أجسامهم . . وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل » .

والدين الفرعوني يركز كثيراً على فكرة الخلود . ووجد الكهنة في المعابد بذلك فرصة كبرى حين استطاعوا أن يقدموا المساعدة للناس لاجتياز الاختبارات المؤدية للخلود ، حين يحاسب أوزير الموتى ويزن قلوبهم . . وكان الكهنة على استعداد لتعريف الناس بذلك نظير ثمن يؤدونه لهم . . ومن بين تلك المساعدات شراء كتاب الموتى ، أو يعلموهم كيف تعلن الروح براءتها من الذنوب الكبرى في صورة اعتراف سلبي يقول :

« سلام عليك أيها الإله العظيم ، رب الصدق والعدالة . . لقد وقفت أمامك يارب ، وجيء بي لكي أشاهد ما لديك من جمال . . أحمل إليك الصدق . . إني لم أظلم الناس . . لم أظلم الفقراء . . لم أهمل . . لم . .

ولم . . حتّى يقول ، ولم أصطد بالشباك طيور الإله . . أنا طاهر . . أنا طاهر . . أنا طاهر . . » ؛ وظلوا هكذا . . حتّى كان أخناتون الذى جلس على العرش فى سنة ١٣٨٠ ق . م . ولم يكد يتولى الحكم حتّى ثار على دين أمون وعلى أساليب الكهنة فى المعابد وخاصة فى معبد الكرنك الذى كان كهنته يتخذون من العديد من النساء سرارى لأمون فى الظاهر ويستمتعون هم بهن فى الحقيقة . وثار الملك وقال . . « إن أقوال الكهنة لأشد إثماً من كل ما سمعت منذ توليت الملك حتّى السنة الرابعة منه ، وهى كذلك أشد إثماً مما سمعه أمنحوتب الثالث » . . واتخذ له أتون إلهاً ، وتسمى بأخناتون أو (آتون الأرض) وقال فيه :

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء .
أى آتون الحى ، مبدأ الحياة .
فإذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى
ملأت الأرض كلها بجمالك .

وقال . . إن آتون ليس إلهاً فى صورة البشر دون غيرها من الصور ، ولكنه رمز للأبوة الجزعة القلقة الرحيمة الرقيقة القلب . وكانت بذلك فكرة التوحيد التى سمت بالبشرية إلى الدرجات العلى . . وكان حكم ذاك الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان فى تاريخ مصر . . ولعل الحنو والعطف ، كانا سبباً لفقد مصر هيبتها فى آسيا وضياع ولاياتها هناك وخسارتها لإمبراطوريتها الواسعة حتّى عادت دولة صغيرة ،

أقفرت خزائنها وعمتها الفوضى وألفى الملك نفسه فقيراً معدماً، ثم مات ولم يزل شاباً فى عام ١٣٦٢ ق. م.

وبعد عامين . . جاء توت عنخ آمون حبيب الكهنة والعائد إلى رحاب المعبد وعبادة الآلهة القديمة . وأزيلت من جميع المعابد كلمتا أتون وأخناتون . . وحرم الكهنة على الشعب أن ينطقوا باسم الملك المارق : وعاد كل شيء إلى سابق عهده .

ومضى توت عنخ آمون، وجاء من بعده قائد باسل يدعى حار محب أعاد إلى مصر أملاكها وولاياتها . .

ثم مضى هذا ، ليأتى من بعده سيتى الأول الذى شيد بهو الأعمدة فى الكرنك، وشرع فى نحت معبد عظيم فى صخور أبو سمبل .

ثم ارتقى العرش رمسيس الثانى بطل قصتنا هذه . . والذى تم فى عهده بناء أوحفر معبد أبو سمبل، وزينت واجهاته بتماثيله وزوجته الجميلة بين الآلهة . .

ولقد عقد الأمور بعد أن فشلت ثورة أخناتون الدينية، أن الملك نفسه كان يُنظر إليه باعتباره إلهاً . ولذلك اتجه الأمر إلى أن يكون لفرعون إله غير إله الشعب وكان هذا الإله هو رع إله الشمس . . وباعتباره إله فرعون ، كانت تقدم له فروض الطاعة والإجلال أكثر من أى إله آخر، باستثناء أوزيريس وإيزيس . وحتى الأسرة الثامنه عشرة فى مصر

لم يجرؤ ، أحد من الشعب على عبادة إله فرعون الخاص .

ولقد تم توحيد الوجه البحرى والوجه القبلى فى مصر منذ الأسرة الأولى ولكن بقيت الآلهة متعددة كما هى. وكان من عوائق هذا التوحيد، المركز الاقتصادى الذى احتلته المعابد الخاصة بكل إله، ومقاومة كهنة هذه المعابد تجاه توحيد الآلهة باعتباره ضاراً بمصالحهم الاقتصادية . . وكانوا هم أعداء فكرة التوحيد وثورة أخناتون الدينية . . لأن المعابد كانت مراكز اقتصادية ضخمة تملك الضياع والمزارع . ولقد أفاض الفراعنة الأوائل والأمراء، الامتيازات على المعابد، هذا بالإضافة إلى ما يرفع إلى خزائن الآلهة فى معابدها من هدايا وفيرة ثمينة ومحاصيل وقطعان . . إلخ . . ولقد أورد « استندرف » فى كتابه (ديانة قدماء المصريين) أمثلة على ما حققته المعابد من ثروة فى أوائل حكم الرعامسة (حوالى ١١٥٠ ق . م) . فلقد ورد فى ورقة بردى « هريس » بالمتحف البريطانى ، أن ممتلكات المعابد كانت فى تلك الفترة لا تقل عن ١٠٣١٧٥ خادماً و٤٩٠٣٨٦ رأساً من الماشية ، ٤١٣ حديقة ، ١٠٧٤٤١٨ فداناً و٨٨ مركباً ، ٥١ حوضاً للسفن ، ١٦٩ بلدة بعضها فى وادى النيل وبعضها خارجه .

بعد ذلك، كانت غاية الفرعون . . هى الخلود . .

ويؤكد « تشايلد » فى كتابه (ماذا حدث فى التاريخ) أن بلوغ الخلود لم يظهر فى اللاهوت المصرى القديم كحافز على الفضيلة الأخلاقية

أبداً . وما كان الخلود بعد الموت فى الحضارة القديمة إلا استمراراً للحياة على الأرض .

وبرغم علو سلطة الملك ، فلقد كانت هناك سلطة أعلى منه ، تلك هى سلطة الكهنة . وكان طبيعياً أن يقوم بين السلطتين خلاف ، وتطور ذاك الخلاف المستتر حتى كان من شأن تلك السياسة أن يصبح الملوك خدام الآلهة ، عاجلا كان ذلك أو آجلا .. حتى كانت النتيجة أن اغتصب الكهنة ورجال المعابد الملك . . وتولى الحكم الكاهن الأكبر للإله آمون ، وحكم حكماً كان له فيه السلطان الأعلى .

وهكذا ينتهى الأمر بالمعابد وكهنتها إلى كراسى الحكم لتصبح فى مصر حكومة دينية تصطبغ قراراتها بالصبغة المقدسة الإلهية . وامتصت الآلهة وكهنة المعابد كل ما فى مصر من مصادر الحياة حتى نضب معينها ، فى الوقت الذى كان فيه الغزاة الأجانب يعدون العدة للانقضاض .. وجاء فعلاً اللوبيون من الغرب عام ٩٤٥ ق . م . والأحباش من الجنوب فى عام ٧٢٢ ق . م والأشوريون من الشمال فى عام ٦٧٤ ق. م. وأخضعوا بسلطانهم مصر التى كان يستبد بها الكهنة.. وهكذا قضى المعبد على مصر فى فترة من حياتها طالت حتى نهضت مرة أخرى ، حين فتحها المسلمون حوالى ٦٥٠ بعد الميلاد وبنوا القاهرة من أنقاض منفيس ، وملأوها بالقلاع والقباب الزاهية الألوان . .

* * *

العلم :

يقول « ج كراوثر » : (إن العلم هو نظام السلوك الذى يستطيع الإنسان من خلاله أن يحقق سيطرته على بيئته) .

ويقول « فارنجتون » : (إن منبع العلم هو التجربة ، هو أهدافه العملية . وهذه التجربة هى محك نجاحه . والعلم ينشأ من خلال الاتصال بالأشياء وهو يعتمد على أدلة الحواس .. إن العلم بمعناه الحقيقى والعملى ، هو الأساس الضرورى للعلم التجريدى والافتراض) . ولا يتنافى العلم العملى والتكتيك مع القدرة على التفكير بصرف النظر عن القدرة على التعبير . معنى ذلك أن العلم موجود قبل الحضارة .

كانت المعابد هى دور العلم لامشاحة فى مصر القديمة . ذلك بأن العلماء كانوا فى غالبيتهم من الكهنة . لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها ، يتمتعون بما فى المعابد من راحة وطمأنينة . فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية برغم ما كان فى عقائدهم من خرافات . ويذكر المصريون فى سجلاتهم وأساطيرهم ، أن العلوم قد اخترعها من نحو ثمانية عشر ألف سنة قبل الميلاد « تحوت » إله الحكمة المصرى ، فى خلال حكمه على ظهر الأرض ، والذى طال زمانه حتى كان فى تقديرهم ثلاثة آلاف عام ؛ كما أنهم يؤكدون أن أقدم الكتب فى كل علم من العلوم كانت من بين العشرين ألف مجلد التى وضعها ذاك الإله العالم . ويؤكد ذلك أيضاً

« يمبليكس » (حوالى ٣٠٠ سنة بعد الميلاد) . أما « مينثون » المؤرخ المصرى الذى عاش عام ٣٠٠ قبل الميلاد، فيرى أن تحوت – الإلٰه – وضع ستة وثلاثين ألف كتاب . .

ولا غرابة فى أن يكون منبع العلم من تفرغ الكهنة واعتمادهم فى أقواتهم على غيرهم . .وتلك نظرة أكدتها ملاحظات الفلاسفة فيما بعد ، ولننظر فيما قالوا . .

قال « أفلاطون » : إن الفراغ شرط ضرورى لكسب الحكمة، وإنك من أجل ذلك لست بواجدها فيمن يملؤون زمانهم بالسعى فى طلب الرزق، ولكنك واجدها فيمن عنده ما يغنيه عن هذا الطلب، أو فيمن حملت عنه الدولة متاعب هذا الطلب والقلق من أجل اللقمة .. معنى ذلك ، ربط بين الفراغ وكسب الحكمة .

وجاء « أرسطو » بعده ، وربط الفراغ بحياة التأمل والتفكير واستكناه بواطن هذا الوجود، فهو بذلك جرى فى هذا الأمر هو وأفلاطون فى طريق واحد . . ولقد نحا نحو أفلاطون وأرسطو، أكثر فلاسفة اليونان .. ونحن لو ترجمنا (حكمة) أفلاطون و (حياة التأمل) التى عناها أرسطو ، لو ترجمناهما، لشملت أوجهاً من النشاط الفكرى والنفسانى والروحانى ، كثيرة . . وهذا ما كانوه ، كهنة المعابد عند الفراعنة الأقدمين . . .

ولهذا، فلابأس من أن نورد هنا هذه الكلمات .. إن باب الحضارة



رمسيس ملكا . . .

مفتاحه فى يد الرجل الذى عنده فراغ ، وإن الفلسفة والموسيقى والفن بعامة، لاتنتعش فى قوم يشتغل رجالهم فى اليوم ، وتشتغل نساؤهم ، أربع عشرة ساعة . .

وعلى أية حال ، فلسوف نمضى نتحسس أصول العلم التطبيقى منذ بداياته الأولى وبخاصة فروعه التى كان لها الدور الأكبر فى إقامة المعابد بفن معمارى بديع وبمواقع محددة فلكياً حتى يبلغ نور الشمس قدس الأقداس فى وقت معين ؛ كذلك فروع العلم التى كانت فى خدمة المعابد أو حتمت وجودها حياة المعبد ، وسنجد فى غير ترتيب زمنى :

الكتابة :

إن العمليات الواسعة النطاق والمقادير الضخمة من المواد الزراعية وغيرها ، الداخلة فى نطاق إدارة المدينة الجديدة أو مدينة المعبد، حتمت ظهور الكتابة . فلقد استحال على الكهنة أن يعتمدوا على ذاكرتهم فى تسجيل كميات المواد الداخلة إلى المعبد أو الخارجة منه، ومن هنا نشأت الحاجة إلى التسجيل، فكانت الكتابة وهى علامة بارزة من علامات الحضارة . .

الفلك :

لقد ارتبط هذا العلم فى منشئه ارتباطاً وثيقاً بالحاجة القصوى إلى

تنظيم الزمن على مدار السنة وعلاقة هذا بالزراعة ومتطلباتها ، ولكنه كذلك له صلة وثيقة بالأفكار الدينية التى كانت قائمة آنذاك ولها دخل فى تطوره . فالطقوس الدينية السائدة وأفكار البعث بعد الموت ، والحاجة إلى إيناس الميت بالضوء الطبيعى فى قبره ، وبلوغ شعاع الشمس فى أوقات معينة إلى قدس الأقداس ، كل ذلك كان عاملا هاماً فى تطوير الفلك .

الحساب :

كان الحساب هو العلم الذى قفز فى مبدأ الأمر قفزة كبرى ، لأن الأوضاع الاقتصادية كانت تحتم على الكهان القابضين على نواصى المعابد أن يقوموا بعمليات حسابية للوارد إلى المعبد والصادر عنه .

التحنيط :

فى ظل الدين والعقيدة المصرية القديمة ، نشأ التحنيط . . . ولقد نشأ التحنيط فى مصر القديمة أول الأمر ، والغاية منه إطالة الحياة ، لأن المصرى القديم ، وهو على ما نعرف كان خالى الذهن من أية ثقافة أو أية فكرة علمية ، كان يعتقد فى سذاجة أن الجسم ما دام يحتفظ بشكله الخارجى ، فإنه حى حياة قد تختلف عن حياتنا ، ولكنها مع ذلك حياة ما . ومن هذا المنطق نشأ الاعتقاد بوجود عالم ثان . وما هذا

الاعتقاد إلا إيمان بطول الحياة ، أو هو محاولة لإطالتها . فعقيدة العالم الثانى ، وعقيدة الطوفان كلتاهما نشأتا من عقائد المصريين الأولى .

فنشأت العقيدة الأولى — تواجد العالم الثانى — من رغبة المصرى فى إطالة الحياة . ونشأت العقيدة الثانية — الطوفان — من ظاهرة فيضان النيل .

وفى عمليات التحنيط كانت تزال عن الجسد الميت كل الأعضاء الداخلية باستثناء المخ ، ثم يملأ التجويف بالتوابل والراتينج ، ثم يلف الجسد فى كتان رقيق . وأحياناً يوضع قناع من الجبس المذهب فوق الوجه وتوضع الجثة فى تابوت خشبى على هيئة صندوق . وكان ذلك كما هو فى اقدم مومياء عرفت ، ويرجع عهدها إلى الأسرة الثالثة .. أما فى الدولة الوسطى ، فقد كانت طرق التحنيط للأفراد غير المنتمين للطبقة العليا غير متقنة . إذ كانت تزال الأعضاء الداخلية بما فى ذلك المخ ثم تحفظ هى والجسد فى الجير الحى أو فى الملح . أما بالنسبة للطبقات العليا فقد اتبعت طرقاً فى التحنيط أغلى ثمنا ، تقوم على استخدام الصموغ والتوابل والراتينج ، وقد حققت الدولة الحديثة (١٧٠٠ — ١١٠٠ ق.م) تقدماً كبيراً فى طرق التحنيط فشاعت طرق جديدة فى محاولة جعل المومياء تظهر بمظهر الشخص الحى ، وذلك عن طريق حشو الوجنات وغيرها من أجزاء الوجه والجسم بالطمى ، يدفع إلى الداخل عن طريق فتحات تعمل فى الجلد . وبعد ذلك يطلى وجه الميت بالألوان . ولقد ذكر « هيرودوت » أن المدة التى

تستغرقها عملية التحنيط فى المعبد هى سبعون يوماً . ويظن أن التحنيط نفسه كان يستغرق أربعين يوماً . وأن الثلاثين يوماً الأخرى كانت لازمة للف المومياء باللفائف وربطها . إذ أن كل رباط يلف، كانت تتلى خلاله صلوات وطقوس معينة . ولقد تأيد هذا الظن عن طريق أثر تذكارى لرمسيس الرابع . وفى الصورة جثة رمسيس الثانى صاحب معبد أبو سمبل محفوظة بالكامل بالمتحف المصرى .

التعدين :

لاشك أن اكتشاف المعادن كان هو التقدم التكنيكى الأساسى الذى صاحب نشأة الحضارة وتقدم الزراعة وقيام المدن . ولقد اتخذت المعادن بداءة للزينة . ثم صنعت منها أدوات معدنية ومعدات أدت إلى تغيير كيفى جديد فى سيطرة الإنسان على محيطه وبيئته . . وكان من بينها الأزميل ، أداة الفنان والنحات . .

المعمار :

يستدل من كتابات « ميس مورى » فى كتابها (مصر ومجدها الغابر) أنه كان للفراعنة تخطيط متقدم فى فن البناء وهندسة المدن والمعابد والأهرامات . فإذا ما تعرضنا للمعمار المصرى القديم فى عصر الحضارة، وجدنا فنا له أسسه ومشاكله العديدة التى ووجهت بذكاء كبير ومعرفة غير بسيطة . ويتحتم هنا الإشارة إلى إحدى صعوبات المعمار الأساسية

فى مصر، ونعنى بها التحرك السنوى للأرض نتيجة الفيضان . ولقد كان من الطبيعى أن يحاول المهندسون القدماء تجنب هذه المشكلة، بإقامة المبانى فى الصحراء وعلى مقربة من سفح الصخور منعاً لتسرب الماء مثل (معبد أبو سمبل) ، وإن لم تكن تلك قاعدة عامة . وتشهد المعابد التى قاومت ضغط الفيضان أكثر من ثلاثة آلاف عام، بأن وسائل المهندسين المصريين القدماء قد صادفها توفيق رائع . كذلك فلقد توصل المعمارى المصرى القديم ، إلى صنع القبوة المستديرة فى البناء منذ عهد الأسرة الثالثة . ومنذ الأسرة الثالثة أصبح استعمال الحجر فى البناء عاماً وشائعاً فى الأهرامات والمعابد . وفى عصر الأسرة الرابعة كان المهندس المصرى قادراً على بناء معابد من الجرانيت . وإن الجهود التى كانت تبذل لانتزاع الأحجار الجيرية والرملية الجرانيتية، وحتى أحجار البازلت من موطنها لتدل على مستوى راق جداً من الخبرة الفنية . . حتى توجت تلك الأعمال بنحت المعابد فى صميم الجبل ذاته، دون حاجة إلى قطع الأحجار وتشوينها وتشكيلها كما فى «معبدى أبوسمبل» وتماثيلهما الرائعة . وكان ذلك يستلزم تسوية الجبل لنحت التماثيل، وحفره على شكل مغارة صناعية لبناء المعبد ذاته، ومن داخله قدس الأقداس . ويقول المتخصصون إنه ليس لديهم اليوم معلومات واضحة، عما إذا كان المعماريون المصريون يضعون الرسوم التصميمية فى بناء المعابد قبل بدء العمل؛ فإما أن تكون هذه الرسوم التصميمية قد ضاعت أو أنها لم توجد أبداً . ولو صح الاحتمال

الأخير ، لكان أمراً مدهشاً حقاً . . إذ معنى هذا أن المهندسين كانوا يعتمدون على ذاكرتهم فى حفظ قائمة ضخمة من المقاييس والمواصفات .

الصناعة :

مع زيادة فائض الإنتاج الزراعى ، ازدهرت التجارة والصناعة والتعدين، فكان النحاس ينجم وكان الحديد يستورد وكان الذهب يستغل بكثرة على طول الضفة الشرقية للنيل حتى بلاد النوبة . وعرف المصريون فى عهد الأسرات الأولى ، كيف يصنعون البرونز بمزج النحاس بالقصدير ، وصنعوا منه بعدئذ أدوات وآلات تفيد فى الزراعة والصناعة ، ثم مخارط وأزاميل ومثاقيب تثقب أقسى أحجار الديوريت، ومناشير تقطع ألواح الحجارة الضخمة لصنع التوابيت ونحت التماثيل . كانوا على مقدرة فنية رائعة، هؤلاء الذين تفصل ما بيننا وبينهم آلاف السنين حتى ليقول « بسكل » : «إذا فاضلنا بين قدرة المصريين الفنية وقدرتنا نحن، تبين لنا أننا كنا قبل اختراع الآلة البخارية، لانكاد نفوقهم فى شيء» .

ولقد كان فن الهندسة عند المصريين القدماء أرقى من كل ما عرفه منه اليونانيون أو الرومان . . أو حتى ما عرفته أوربا قبل الانقلاب الصناعى ، ولم يتفوق عليهم فيه إلا عصرنا الحاضر .

ولعل الصور والنقوش البارزة التى خلفتها الأسرة الثامنة عشرة — التى من بين ملوكها ملكنا العظيم رمسيس الثانى — خير دليل وبرهان على ذاك التفوق المبهر .

الفن :

لا جدال فى أن الفن كان أعظم عناصر الحضارة الفرعونية القديمة . إذ وجد فى مصر وفى عهد لم تنبلج عنه شمس للحضارات بعد ، فن قوى ناضج يكاد يكون أرقى من فن أية دولة معاصرة . ولقد كان ما امتازت به مصر فى أول عهودها من عزلة وسلم ، ثم ما تدفق فيها بعدئذ من مغانم الحرب فى عهود ملوكها الشجعان مثل تحتمس الثالث ورمسيس الثانى ، ما أتاح لها الفرصة المواتية والوسائل الكفيلة لتشييد المبانى الضخمة ونحت التماثيل الرائعة والمتينة . كذلك البراعة فى عديد من الفنون الأخرى كادت تلمس حد الكمال فى ذاك العهد السحيق . ولعل ذاك يكون مبعث حيرة وشك للقارئين فى البحوث والنظريات التى يضعها العلماء عن نظريات التطور والرقى البشرى ، إذا ما نظر إلى ما أبدعت يد المصرى القديم وما أخرجت قريحته . . وكانت العمائر ــ لاشك أفخم الفنون المصرية على الإطلاق ، وذلك لما جمعته بين دفتيها من روعة وضخامة وصلابة وجمال ومنفعة وكانت بدايات هذا الفن المعمارى الرائع تابعاً من توابع العقيدة الروحية عند الفراعنة عندما راحوا يبحثون للروح عن مكان تسكنه ؛ فكان القبر . . وما دامت الروح ثم القرين من بعد ، على درجة من التبجيل والاحترام ، فلابد للفن من أن يزين وينقش . ولقد كانت أحجار البناء التى تجلب من أماكن بعيدة أغلى وأثمن من أن تستخدم فى تشييد المنازل ، ولهذا كانت من مواد الترف الخاص بالكهنة والملوك .

وحتى النبلاء أنفسهم، فلقد آثروا المعابد بأكبر قسط من الثروة وبأحسن مواد البناء، ولعل ذلك سر عفاء البيوت والقصور القديمة وبقاء المعابد والمقابر حتى أيامنا هذه. وكان خير سجل لذلك بعد الأهرامات، تلك المجموعة الفخمة من الأعمدة والبنايات عند الأقصر والكرنك وعلى الامتداد حتى «أبوسمبل» عند النوبة، وامتداداً فى التاريخ من تحتمس الأول حتى رمسيس الثانى وغيرهم فيما بين الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثانية والعشرين.

وكان الفنانون القدماء، مثالين عظاماً بجانب كونهم معماريين من الطراز الأول، فلقد أنشأوا فى بدايات حياتهم تمثال «أبى الهول» منذ نحو ستة آلاف سنة. كذلك ما أروع تمثال «خفرع» المصنوع من حجر الديوريت ثم تمثال «شيخ البلد» و«الكاتب» ثم تباعا، تماثيل الملوك، من ناحية الإبداع والاتقان الفنى الذى ليس بعده إتقان، وجميعها من تماثيل الدولة القديمة.

وإذا ما نظرنا فى آراء المحدثين، فإننا نجد أن النحت فى نظر «البير كامى» (١٩١٣ — ١٩٦٠ م): (يعتبر من أعظم الفنون جميعاً وأشدها طموحاً، إذ هو يسعى جاهداً فى سبيل العمل على تثبيت الصورة الإنسانية العابرة أو تخليد الوجه البشرى الزائل، فوق الأبعاد الثلاثة المعروفة.. ويعبر «كامى» عن ذلك بقوله: إن النحت يحاول «رد فوضى الحركات إلى وحدة الطراز». ولئن كان فى النحت لايستبعد عنصر المشابهة — لأنه فى حاجة ماسة إليه — إلا إنه لا يبحث أولا وبالذات

عن محاكاة الواقع ، بل هو ينشد الإيماءة والسحنة والسيماء والنظرة الحاوية لأن هذه جميعها تلخص حركات الناس ونظراتهم . فالنحت لايرمى إلى التقليد أو المحاكاة ، بل هو ينشد التعبير والطراز ، أعنى أنه يحاول أن يحتبس فى تعبير قوى حافل بالمعانى ، تلك الصورة البشرية الزائلة، صورة الأجسام العارمة والنفوس المضطربة فى شتى المواقف الخالدة ، التى تحمل فى طياتها معانى السكون والكمال ، فإنه يشيع الهدوء — ولو إلى حين — فى تلك القلوب البشرية الفائرة بحمى القلق والتوتر والحركة المستمرة . . وينظر العاشق الحزين إلى تلك التماثيل الساكنة ، فيتملى فى محيا المرأة وجسدها ، ذلك العنصر الإلهى الخالد الذى يبقى منها بعد انحلال المادة وفناء الجسم) .

ونمضى مع النحت المصرى القديم فنجد آيات فنية أخرى من حجر ومن خشب ، ومن نحاس ومن ذهب . ولكن يذكر التاريخ أن منتجات فن النحت المصرى بعد عهد الأسر الأولى لم تصل إلى ما كانت عليه فى عهدها إلا بعد أن مضت عليها قرون عدداً . وإذا كانت معظم التماثيل إنما أبدعت أصلا للمعابد والمقابر، فلقدكان للكهنة الدور الأول فى تقرير الأنماط التى يجب أن يلتزم بها الفنان فى إبداعه . . . ويتحكم الكهنة فى ذلك ، ويقول التاريخ إنه من هنا . . تسربت إلى الفن النزعة الدينية المحافظة فجثم على قلب الفن بسببها كابوس التقاليد ، وكان سبباً فى تدهوره . . حتى بلغ الزمان مبلغ الأسرة الثانية عشرة وملوكها

الأقوياء، فعاد للفن انتعاشه، واستعاد قوته وفاق الفنانون فى العهد الأخير ما كان عليه أسلافهم الأولون براعة . . ثم نكسة أخرى من نكسات التاريخ المحتومة على الأمم . . جاء الهكسوس غزاة لأرض مصر . . وكان حتماً أن ينعدم الفن المصرى إلا قليلا وعلى مدى ثلاثة قرون . .

وللتاريخ دورات.. ينهض الشعب على ضفاف النيل مرة أخرى، ويبعث الفن من جديد منتفضاً قوياً، فيخرج للزمن تماثيل تحتمس الثالث ورمسيس الثانى الخالدة بروعتها ، الباقية بعظمتها ، وغصت أركان المعابد جميعاً بآيات الفن وإشراقاته ، ولعل آية من آياته تتجلى بدقة فى تماثيل رمسيس الثانى على اختلافها ومن بينها تمثاله وهو يقدم القربان للآلهة جثوماً، لايكاد الإنسان يصدق أنه يفعله أوأن الفنان يخرجه . ثم معجزته ، التى نحتها فى صخر جبل «أبو سمبل» ، فنانون يعجز القلم فى القرن العشرين عن أن يوفيهم حقهم من تقدير .. على أن التاريخ يعود فيذكر أن جذوة النهضة الفنية لم تلبث أن خمدت بعد عهد رمسيس الثانى، وظل الفن المصرى من بعده قروناً، كثيرة يقنع بتكرار الأعمال والأشكال القديمة . .

لقد تعاون الدين المصرى مع الثروة المصرية على الإيحاء بالفن وإنمائه فى بعض العصور ، كما أدى ضياع الإمبراطورية أحياناً إلى إماتته . فلقد كان الدين يقدم للفنانين الحوافز والأفكار ويوحى إليهم بروائع الفن . . والكهنة فى المعابد هم الأئمة فى ذلك .

لماذا ؟ !

ذلك؛ لأن الفن كان فى خدمة الدين والعقيدة منذ القدم، يستلهم روحه ومادته من المعبد فى كل زمان ومكان . فلقد بنى الأقدمون الأهرام منذ ما يزيد على خمسة آلاف سنة، وكان هدفهم الأعلى الدين والعقيدة، لا الفن والعمارة . ذلك لأن الاعتقاد السائد آنذاك أن فى كل جسم حى تستقر قرينة — يسمونها كا — لا تموت بموت الجسم . ومن ذاك المعتقد كانت تدفن مع الميت حاجاته من طعام وغذاء وكساء .

ولقد قام الفن بدور غير منكور فى حياة الفراعنة القدامى، حتى ليقال حقيقة: إن الفن لم يخدم الإنسان فى عصر من العصور بمثل ما خدم وقدم لهؤلاء المصريين الأول . فلقد كان الفنانون ينقشون على الحجارة صوراً ورسوماً ، ثم عبارات سحرية تحيل عند اللزوم تلك الصور والرسوم حية قادرة على أداء كل ما يحتاجه الميت من خدمات كأنها أجسام وأشياء حية وحقيقية . هذا بجانب تحنيط الجسوم طبعاً .

ولم يكن الملوك فى بلد من البلاد بمثل الكثرة التى كانوا بها فى مصر القديمة ، ولذلك فالتاريخ يضمهم جميعاً فى أسر ، تشمل كل أسرة ملوكاً من بيت واحد أو ذرية واحدة تنشأ عن أصل واحد . وكان كل ملك من ملوك ذلك الزمان الغابر ينافس سابقه ولاحقه فيما يقدم وما يترك

للأجيال القادمة من آثار تتحدث عنه وكانت خير وسيلة له فى ذلك ، الفن بشتى مناحية . انظر إلى قائلهم :

كنت رجلاً زرع البذور ، وأحب إله الحصاد . .

وحبانى النيل وكل وديانه . .

ولم يكن فى أيامى جائع ولا ظمآن . .

وعاش الناس فى سلام بفضل ما عملت ، وتحدثوا عنى . .

يبقى بعد أن قمنا بجولتنا فى وديان التاريخ نتلمس العوامل والأسانيد التى ارتكنت إليها الحضارة المصرية فى قيامها وازدهارها .. وكذلك ما كان عاملا مساعداً هاماً لأى ملك أن يحكم ويبنى ويشيد ويعمر ويترك الآثار الدالة عليه . . أقول، يبقى أن نستعرض باختصار قصة حياة ذلك الملك، الذى تم فى عهده بناء معابد «أبو سمبل» ونسب له ولزوجته الجميلة أيضاً ؛ أو جميلة الجميلات كما كانت تسمى . . ملكنا هو رمسيس الثانى أوسيزوستريس . . والملكة هى نفرتارى . . .

* * *

يعد رمسيس الثانى شخصية من أروع الشخصيات فى التاريخ ، يبدو الإسكندر إلى جانبها إنساناً لاقيمة له ولاخطر . لقد عاش هذا الملك تسعة وتسعين عاماً جلس منها على عرش مصر سبعة وستين ، وأنجب من الأبناء مائة وخمسين وتراه فى بعض تماثيله عند الشاطئ

الغربى من الأقصر(تمثالاً كان ارتفاعه فى يوم من الأيام ستاً وخمسين قدماً) ، وقد حرص علماء نابليون على قياس كل جارحة فيه فقدروا طول أذنه بنصف قدم وعرض قدمه بخمس أقدام وقدروا وزنه بألف طن . . ويقول « ول ديورانت » : وكان حقاً على نابليون أن يحييه بما حيا به الفيلسوف « جوته » فيما بعد إذ قال : « ها هو ذا رجل » .

ويعتبر رمسيس الثانى صاحب شخصية خيالية عجيبة . . كما أنه يعد آخر الفراعنة العظام . ويقول « ول ديورانت » فى كتابه : قصة الحضارة . . إنه قلما عرف التاريخ ملكاً أبهى منه منظراً . فقد كان وسيماً شجاعاً ، أضاف إلى محاسنه، إحساسه فى شبابه بتلك المحاسن . ولم تكن جهوده الموفقة فى الحرب، ليضارعها غير مغامراته فى الحب .

هل كان رمسيس الثانى فى ذلك، يتمثل بقول شاعرهم الفرعونى الذى كان يحض على اغتنام الفرصة قبل فواتها ويدعو لإشباع النفس من السرور قبل أن تجرع كأس الردى . . قال الشاعر الفرعونى . .

وزد فى مباهجك أكثر من ذى قبل .

ولا تترك قلبك يذبل .

وسر وراء رغباتك وما فيه الخير لك .

وهيىء أمورك على ظهر الأرض .

حسب ما يأمر به قلبك أنت .

حتى يأتيك يوم النحيب .

حين لا يسمع الموتى نحيبهم .

وحين لا يصغى من فى القبور إلى حزنهم .

واحتفل بيوم السرور .

ولا تمل منه .

انظر ، ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه .

أجل ، ولا يعود ممن ذهبوا إلى هناك أحد . .

وبعد أن نحى رمسيس الثانى هذا عن العرش ، أخاً له ذا مطالب جاءت فى غير وقتها المناسب ، سير حملة إلى بلاد النوبة ليفتح ما فيها من مناجم الذهب وانتصر فى الحروب الآسيوية وحطم الأحلاف التى أقيمت ضد مصر فى عام ١٢٨٨ ق . م، ولربما كان من نتائج تلك الحملات التى قادها فى حروبه الآسيوية أن جيء إلى مصر بعدد كبير من أسرى الحرب . . كذلك فإنه كملك منتصر أمر أن تخلد انتصاراته بغير قليل من المبالغة والتحيز ، على خمسين جداراً أو نحوها . . أنطق فنانو عصره أحجارها بالتاريخ والفن وكل عمل جليل . ولعل جدران المعابد كانت بذلك مراكز إعلام وتوثيق ودعاية لحاضره وللمستقبل، قريبه والبعيد، حتى يومنا هذا، وما بعد يومنا . ومن معالم تخليده لنفسه، أنه أمر أحد الشعراء فى عصره أن يشيد بذكره فى ملحمة شعرية لم تزل

تردده‍ا البرديات المحفوظة بالمتاحف . ثم يقول « ديورانت » .. ولقد كافأ رمسيس الثانى نفسه على انتصاراته وفتوحاته وأعماله العظام تلك ، ببضع مئات من الزوجات. وخلف بعد وفاته مائة من الذكور وخمسين من الإناث . . كما أنه تزوج عدداً من بناته حتى يورثن عظمته لأبنائهن منه . . ثم إن أبناءه وأحفاده وذرياته جميعاً ، كانوا من الكثرة بحيث تألفت منهم طبقة خاصة فى مصر بقيت على هذا الحال أربعة قرون وظل حكام مصر يختارون من تلك الطبقة أكثر من مائة عام .

ويستطرد المؤرخون . . والحق أنه كان جديراً بهذا كله ، فقد حكم مصر كما يلوح حكماً موفقاً . ولقد أسرف فى البناء والمعمار إسرافاً كان من نتائجه أن نصف ما بقى إلى اليوم من عمائر الفراعنة يعزى إلى أيام حكمه . . فهو الذى أتم بناء البهو الرئيسى فى الكرنك ، وهو الذى أضاف أبنية جديدة إلى معبد الأقصر . . وهو الذى شاد ضريحه المعروف بالرمسيوم فى غرب النهر عند الأقصر ، كما أنه هو الذى أتم المعبد المحفور كمغارة هائلة فى جبل «أبوسمبل» فى صخر الحجر الرملى النوبى الصلد ، وهو الذى نثر تماثيل له مختلفة الأحجام والمادة ، على طول البلاد وعرضها . . أعمال كثيرة لاشك ، ثم أسلم الروح فى عام ١٢٢٥ ق . م. وهو فى التاسعة والتسعين من عمره بعد عهد يعد من أشهر العهود فى التاريخ . .

وكانت خاتمة القصة هكذا . .

يعود بنا التاريخ لنرى الخاتمة ، إلى سنوات وسنوات تتراجع إلى الوراء مئات وآلافاً إلى نحو ٣١٧٢ سنة مضت ، هناك ، كان وجوم فى القصر الفرعونى الكبير المطل على نيل طيبة (الأقصر) . حزن ودموع بعد صيحة خافتة من نفرتارى ، الملكة التى كانت تحكم قلب زوجها . . « لقد مات رمسيس العظيم » . وانطلقت الآهة الحزينة الملتاعة من أبواب القصر الملكى إلى خارج أسواره، إلى الشعب فى العاصمة والمدن والقرى.. شمالاً وجنوباً على طول البلاد وعرضها .

لقد مات فرعون القوى العجوز . . وبسرعة يحتشد ١٥٠ ولداً وبنتاً لرمسيس الثانى من حول جثمانه ، ويختارون ابنه الثالث عشر مرن بتاح ، إنه أذكاهم . وبسرعة البرق تلتف حوله الحاشية . لقد مات فرعون، فليحى فرعون الجديد . ولكن القصر ما زال حزيناً تجلل رءوس نسائه (النيلة الزرقاء والسوداء) حداداً وحزناً . إن فرقة المحنطين جاءت من المعبد وبدأت تحنيط جثة رمسيس فى عملية تستغرق سبعين يوماً . ثم دفنوه مع كل المهابة ، بعد أن عبروا به النهر إلى الغرب .. إلى وادى الملوك ..

واليوم ترقد مومياء رمسيس الثانى مع مومياء ٢٧ من فراعنة مصر وملكاتها ، فى حجرة واحدة فى الدور الثانى من المتحف المصرى فى قلب القاهرة . ولكن كيف جاءت ؟ . يستطرد الراوى فيقول :

بعد تولى مرن بتاح الملك ، ألهب الشعور القومى فى مصر وطرد أهل

إسرائيل فى خروجهم التاريخى عبر سيناء . . ثم يتوالى من بعده الحكام والكهنة ينهبون خير الأرض . إن كهنة آمون يستولون باسم معابده على كل ذهب النوبة وما أكثره ، ويجوع الناس ويثور الشعب ويسطو اللصوص على مقابر وادى الملوك . وتأتى الأيام السود مع المجاعة . ويختلف لصان هما « باسر » حاكم شرق طيبة « وباروعا » حاكم غربها . الأول يتهم الثانى بنهب المقابر فيقتضى ذلك أن يحقق رمسيس التاسع الأمر . يأتى بعده الفرعون ، الكاهن : حريحور ليؤسس الأسرة الواحدة والعشرين . ويجمع مانهب من أجساد وتوابيت وأشياء أخرى . كان ذلك فى عام ١٠٩٠ ق.م. ويضعها فى مقبرة سيتى ، ثم تتغير خبيئتها إمعاناً فى التضليل فتدخل إلى مقبرة « أمنوفيس » ، ومنها إلى خبيئة فى غموض جبل القرنة بجوار الدير البحرى .

ولعل شاعرهم الفرعونى كان يعبر عن مثل تلك المفاسد حين قال :

لمن أتحدث اليوم ؟

الإخوة أشرار .

وأصدقاء اليوم ليسوا أصدقاء حب

لمن أتحدث اليوم ؟

القلوب قلوب لصوص .

وكل رجل يغتصب ما عند جاره .

ويمر زمن طويل .. طويل جداً . . إلى ٩٧ سنة مضت حين تعثر أسرة عبد الرسول على الخبيئة . . عشرات المومياء للملوك وملكات وبرديات . .

ويكتشف العلماء : بروكش باشا (الألمانى) وأحمد كمال باشا (المصرى) وماسبيرو (الفرنسى) ، مومياء رمسيس الثانى وينقلونها إلى القاهرة، ثم إلى المتحف المصرى فى بولاق آنذاك . . وقبل أن يقيم « ماريت » متحف القاهرة الحالى من ٦٩ سنة . ثم تتحرك مومياء رمسيس الثانى إلى مدفن سعد زغلول بالقاهرة فى ظروف خاصة . . ثم تعود ثانية إلى المتحف المصرى الحالى ، حيث توجد اليوم .

تلك خاتمة قصة رمسيس الثانى . . قصة ملك يستحق كل تقدير وإعجاب لما ترك فى الدنيا من آثار وعمار . .

ولكننا يجب ألا نمضى ، قبل أن نعرف كيف توصل العلم إلى فك طلاسم نقوش الأحجار ولغة القدماء الفراعنة ، فذاك ولاشك مفتاح الكشف عن عظمتهم والتعريف بحضارتهم . .

يقول « ول ديورانت » : إن علم الآثار المصرية يعتبر نتيجة ثانوية من نتائج حروب نابليون الاستعمارية، إذ أنه لما قاد الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ م . اصطحب معه طائفة من العلماء ليدرسوا مصر ويسعوا لفهم التاريخ فهماً أوفى وأفضل مما كان يفهمه المؤرخون وقتئذ .

ولقد وضع هؤلاء العلماء كتاباً باسم « وصف مصر » فى الفترة ما بين ١٨٠٩ حتى ١٨١٣ وأعدوه للمجمع العلمى الفرنسى ، كأول خطوة هامة خطاها العلماء فى دراسة الحضارة القديمة .

ولكنهم وإن يكونوا قد وفقوا فى وصف مصر وآثار حضارتها القديمة حقاً ، وصفاً شكلياً ، إلا أنهم ظلوا سنين عدداً عاجزين عن فك طلاسم لغة الفراعنة التى بقيت فى نقوش على الآثار المصرية . لكنهم كحفنة من علماء ، كانوا يمتازون حقاً بروح الصبر والبحث العلمى مما مكن أحدهم « شمبليون » من حل رموز الكتابة الهيروغليفية أو المصرية القديمة . ولقد عثر « شمبليون » آخر الأمر على مسلة مغطاة بهذه النقوش القديمة مكتوبة باللغة المصرية ، ولكن فى أسفلها نقوشاً باللغة اليونانية عرف منها أن هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوبطرا ، وراح باجتهاده الشخصى يحاول تمييز بعض الحروف المصرية القديمة ومقارنتها بمثيلات لها ، على ما يظن ، من اللغه اليونانية . . . وهى وإن لم تكن محاولة أدت إلى نجاح كامل ، إلا أنها أكدت ضمناً أنه كانت لمصر القديمة حروف هجائية . . وكانت محاولة على الطريق . .

إلا أن النجاح الكامل فى فك طلاسم اللغة الفرعونية ، قد تأتى فعلا حين عثر جنود نابليون على حجر كبير أسود قرب مصب فرع رشيد . . ونقل الحجر . . ودرسه « شمبليون » . . ثم كان أن نطق الحجر بالسر

الأعظم لما طبق صاحبنا ما عرف من حروف هجائية قديمة، على رموز الحجر . . كانت عليه نقوش كتبت بثلاث لغات أولاها «الهيروغليفية» وثانيها «الديموطية» وهى الكتابة المصرية الدارجة؛ ثم الثالثة وهى اليونانية. واستطاع شمبليون بفضل علمه للغة اليونانية وببعض الحروف الهيروغليفية التى عرفها من المسلة الأولى، وبعد جهد متواصل دام أكثر من عشرين عاماً ، استطاع أن يحل رموز النقش وأن يستنطق الحجر أسراره لكى يبيح له بسر الحروف الهجائية المصرية القديمة بأجمعها . . وكان ذلك بداية لسبيل ممهدة للكشف عن عالم عظيم مفقود، وحضارة كبرى طمرها التراب. وجار عليها الزمان فطويت لحين ، فى عالم النسيان . . ولكنها بهذا الكشف عادت كتاباً مفتوحاً لكل قارئ ، وعم الدنيا نورها المبهر من جديد، وعرفنا الكثير والكثير عن أجدادنا مما أسلفناه فى هذا الباب . . بفضل حجر رشيد . . وما نطق به حجر رشيد، الذى يحفظ اليوم فى المتحف البريطانى . .

وهكذا . . نطق الحجر . .

ثم ، موعد مع القدر

.. هكذا كان النيل رفيق الإنسان المصرى القديم وباعث نهضته الأولى منذ ماض من الزمان بعيد. وليس النهر سوى مائه .. وعظمة الأنهار بمقدار ما يجرى فيها من المياه. والنيل — نهرنا — لاشك فى عظمته، وهو يجمع مياهه من مساحة واسعة من الأرض فى الجنوب ، ثم هو يجرى بما حمل مسافات طوالاً يروى ظمأ شعوب، ويحيى موات أرضها ويبنى فيها — وهو قد بنى فى الماضى البعيد — حضارات.. وما ارتبط قوم بنهر مثلما ارتبط المصريون على طول الدهور بنهر النيل. وهم قديماً عرفوا قدره حتى قدسوه وعبدوه. وهم تقديراً لأهميته ، قدعنوا بشئون الماء منذ أقدم العصور كما عنينا، وما زلنا نحن اليوم.. ونحن لاننكر أبداً أننا منحة من النيل الوفى الكريم. ونحن نقدر القول الذى قاله « هيرودوت » بأن مصر هبة النيل. ولكننا أيضاً نعتز بقول آخر قاله زعيم أفريقى كبير فى الاحتفال بتحول مجرى النهر عام ١٩٦٤ وما قال إلا اصدقاً.. (لو أن هيرودوت كان بيننا لقال قولا أكثر بلاغة مما قاله قديماً). لأن المصريين اليوم ، وإن كانوا الأخير زمانهم، إلا أنهم فعلوا ما لم يفعله الأوائل. بنوا هرماً آخر أعظم وأجل نفعاً .. بنوا السد العالى ..

والسد العالى ليس إلا علامة بارزة على طريق كبح جماح النهر والتحكم فيه .. وذاك طريق طويل بدأه قدماء المصريين منذ فطنوا إلى

استخدام مياه النيل فى رى أرض مصر منذ فجر التاريخ ومن يوم اكتشفت فيه الزراعة فيسرت للحضارة من بعد ، سبيلها . ولقد استطاع القدماء التحكم فعلاً فى النهر وعرفوا كيف يبنون السدود والخزانات، واتبعوا نظاماً للرى استمر من ذلك العهد حتى القرن التاسع عشر ، وهو نظام « رى الحياض » وفيه يترك ماء النهر فى فصل الفيضان ليغطى أراضى الحياض بعمق متر ونصف المتر فى المتوسط ولمدة ٤٥ يوماً ، حتى إذا ما انخفض منسوب الماء فى النهر عادت مياه الحياض إلى مجراه بعد أن تكون الأرض قد رويت استعداداً لظمأ من بعدُ، يطول ، وبعد أن يكون الغرين الذى حمله النهر من هضاب الحبشة قد أمد التربة بخصب جديد ، يعوضها عما فقدته فى العام السابق . .والفيضان فى حد ذاته سنوى ، فما إن يبلغ النيل أقصى درجات الانخفاض فى منسوب المياه عند أسوان فى شهر مايو ، حتى تظهر بوادر الفيضان ويعود المنسوب يرتفع حتى يبلغ ذروته فى شهر أغسطس . وتلك الذروة تتفاوت من حين إلى حين، نتيجة لاختلاف ظروف الضغط الجوى فى القارة الأفريقية وعلى المحيطين الهندى والأطلسى ومعها تختلف حالة الفيضان ، فطوراً هو عال خطر يخشى أن تطغى مياهه على الجسور، وطوراً هو منخفض شحيح يهدد الزرع والضرع ؛ ولكن النيل فى معظم الأحوال وفىّ كريم لايغضب إلا لماماً ولايشح إلا ليعود إلى ما عرف عنه من جود؛ فإذا مصر مخصبة وإذا بأرضها تهتز وتربو؛ وتنبت من كل زوج . .

ولقد قلنا باتفاق غالبية العلماء على أن الزراعة عرفت أول ما عرفت فى بلاد النوبة المصرية . . ولعل معرفتها ونجاحها ودوامها راجع لنهر النيل وفيضانه المنتظم . فهو بفيضانه هذا أوجد نظام الرى المسمى «رى الحياض» وهو نظام نجح تماماً فى مصر إذ هو على وفاق مع أحوال النهر ومتلائم مع مناخ البلاد . فلو أن الفيضان كان مبكراً أو جاء متأخراً عن الموعد الذى رسمته له الأقدار ، لما كان من السهل تطبيق هذا النظام . . فإذا كان الفيضان فرضاً فى أبريل ومايو لما ناسب الغلات الشتوية كالقمح والشعير التى تكون فى دور نضوجها . . كذلك لما ناسب الغلات الصيفية التى لم يحل بعد موعد زراعتها . ولو فرض وكان الفيضان يأتى فى موعده ، ولكن بدلاً من أن يعقبه فصل خريف معقول الحرارة ، أعقبه فصل شتاء بارد ، لما ساعد هذا على نجاح نظام الرى الحوضى كذلك . . فاتفاق مواعيد الفيضان إذن مع المناخ ومع الغلات الزراعية ومواسمها كان له الفضل الأول فى نجاح الرى الحوضى فى مصر وفى دوام الزراعة فيها بدوام النظام ذاته ، ذاك الذى استدام منذ عهود الفراعنة الأول وحتى القرن التاسع عشر ، نظاماً للرى يعمل به فى مصر ويضمن للزراعة دوامها ووفرة إنتاجها ، مما مهد لاشك وساعد كثيراً على قيام الحضارة الأولى وارتقائها ديناً وفناً وعلماً ومعماراً حتى لنرى ثمرها على ضفاف النهر حتى اليوم شاهدة بذلك . ومن أعظمها معابد رمسيس الثانى فى النوبة . .

ولقد عملت على طول ذاك التاريخ عدة اصلاحات فى نظام الرى

ويقصد توفير مياه النيل وإنقاذها من الضياع ليستفاد بها فى أيام التحاريق فشقت ترع وأقيمت قناطر وخزانات. ولكن برغم ذلك، فلقد اتضح أن المياه التى تجرى فى النيل لاتكفى لبرنامج التحول من رى الحياض الذى اتبعه أجدادنا الأقدمون منذ آلاف السنين ، إلى رى دائم يوفر القوت لأبناء مصر بعد أن زادوا عدداً . واتجه التفكير إلى البحث عن سبيل للاحتفاظ بمياه النهر للإفادة منها فى توسيع الرقعة المنزرعة . وكانت الفكرة الأولى أن يخزن جزء من ماء الفيضان فى منخفض فى الصحراء ، ثم اقترح فى عام ١٨٩٢ استخدام وادى الريان كخزان ثم رئى إقامة سد يحجز المياه أمامه فلا تنفذ منه إلا بمقدار وسداً لحاجة .

وما كان لمثل هذا السد أن يبنى إلا على أرض صخرية لاتسمح بمرور المياه من تحتها . . كذلك ما كان لمثل هذا السد إلا أن يكون طويلاً تكثر فيه العيون وتتباعد، فتسمح بمرور مياه الفيضان المندفعة ويتوزع الضغط على البناء الطويل . ولابد أيضاً أن يقام فى مياه غير عميقة حتى لايكون ارتفاع البناء سبباً فى ضعفه . واقترحت لذلك عدة مناطق حتى استقر الرأى أخيراً على أن يكون السد عند أسوان؛ ذاك هو خزان أسوان الذى بدىء فى بنائه سنة ١٨٩٨ وملىء لأول مرة سنة ١٩٠٣ وكانت تعليته سنة ١٩١٢، ثم تعلية ثانية سنة ١٩٣٣ . . ولقد كان لرجال الآثار وعلمائها اعتراضات عند بدء التنفيذ خوفاً من أن تغرق المياه بعضاً من مخلفات القدماء الفراعين الشاهدة بمجدهم الزائل... وفعلا أغرقت المياه

بعض قصر « أنس الوجود » القائم على جزيرة الفنتين ، ولم تزل المياه تحيط به حتى بدىء اليوم فى التفكير فى نقله من مكانه حرصاً عليه وإبقاء له . . بعد أن تم بنجاح نقل معابد « أبوسمبل» إلى قمة الجبل بعملية هندسية فنية رائعة . .

* * *

أنقل معبد «أبو سمبل» ؟ . . نعم ، نقل البناء والنحت الذى تم فى عهد رمسيس الثانى ، فى بطن جبل من الحجر الرملى النوبى ومنذ قرابة الثلاثة آلاف سنة أو تزيد . . كان على موعد مع القدر فى عام ١٩٦٨ ليتم نقل المعبد كاملا غير منقوص ولم تهتك حرمة من حرماته . . وليبقى كما أراد له بانيه ، خالداً على الزمن يحكى قصة الأمس البعيد برسوم وكتابات وتماثيل وفن معمارى مانال منها جميعاً كر الغداة ومر العشى ، ولم تمسسها يد البلى ولا عبثت بها أفاعيل الزمان ؛ نعم ليبقى ونقوشه تحكى قصتك أيها الملك . . ومن بين نقوشه ما أورده « ه . برستد » فى وصف تفصيلى لمعبد «أبوسمبل» وما يعنى أن الإله بتاح قال : إنه قد خلق رمسيس الثانى عام ١١٩٤ ق.م بسيقان من الكهرمان وعظام من البرونز وأذرع من الحديد . . أليس ذلك دليلاً على العظمة والقوة يارمسيس . .

آى رمسيس الثانى . . أدار بخاطرك أن يأتى من بعدك بآلاف السنين جيل ينهض كما نهضت بمصر ويشيد فيها معجزات خوارق . . أى رمسيس الثانى . . أساح خيالك فى ليلة مقمرة هناك على ضفاف النهر

وأنت تغسل قدميك بمياهه لتطهر استعداداً للصلاة تقيمها فى معبدك، أن يخلفك على أرض مصر خلف يشيدوا لأجيال كثيرة قادمة دعامة من دعامات وجودهم . . وبناء هو أضخم أبنية هذا القرن . . أى رمسيس الثانى . . فعلت الكثير من أجل بلدك وحاربت وانتصرت وسجلت على جدر معابدك أخبار انتصاراتك وأخرجت اليهود من مصر خروجاً تاريخياً ودارت الأيام يارمسيس وأعقبت أرض مصر رجالاً فعلوا من أجلها الكثير . . وهم على منوالك ينسجون . . ولسوف يفعلون . .

أى رمسيس الثانى . . تقول كتب التاريخ إنك كافأت نفسك على أفعالك بالكثير وكان تفكيرك فى أغلبه فردياً . . وبعد آلاف السنين عادت مصر ليحكمها مصريون . . ونجحوا . . وكان التفكير فى المكافأة ، ولكنه اليوم تفكير جماعى ، فالمكافأة للجميع وللشعب أولا وأخيراً ، وأحد بنود تلك المكافأة كانت السد العالى خلقاً لمصر الجديدة ، القوية العزيزة الكريمة . . وكما كنتم يا رمسيس الثانى تعطون الإنتاج أهمية كبرى فلقد أعطيناه نحن كذلك . وهل تقوى البلاد إلا بزيادة الإنتاج ؟ وهل يكون الشعب حرًّا عزيزاً إلا إذا ضمن مستوى المعيشة الكريمة ؟

كنت يارمسيس الثانى ، ملكاً عزيزاً لشعب عزيز متحرر ، أفيغضبك يارمسيس أن نفكر نحن أيضاً فى مزيد من العزة والحرية . . أكاد أسمعك بأذن الخيال تقول، لا . . حتى ولو كنت فداء لهذه العزة والحرية التى طالما عملت لها وحاربت من أجلها . .

نعم ، يا مليكنا العزيز القوى .. فكرنا فى العزة والحرية وعملنا لها ، ولكن دون أن تكون أنت ضحية لهذا العمل . . وسترى ماذا فعلنا .

فلقد كان — من أجل مزيد من الرقعة المتزرعة ومن ثم ، وفرة فى الإنتاج — أن خُطط لمشروع سد يفوق كل السدود، فوق النيل الخالد الذى ظل منذ عهدك وحتى اليوم كالعهد به دائماً جواداً غير شحيح . . ويختار له مكان لايبعد عن سد أسوان إلا بستة كيلو مترات . . تتعلق به آمال مصر والمصريين ويحجز جميع مياه النيل الزائدة عن حاجة الرى أمامه، بما فى ذلك مياه الفيضان المحملة بالطمى والتى كانت تضيع هباء فى البحر الأبيض المتوسط يوم يختلط العذب الفرات بالملح الأجاج . . ستستفيد أرضك يارمسيس ، أرض الرعامسة الفراعنة ، أرض مينا وأحمس العظيم، أرض خفرع ومنقرع الفراعين ، أرض مصر وكل المصريين، بكل قطرة ماء يمكن أن تروى أرضاً وتسقى زرعاً . . إذ ستكون سعة خزان السد العالى ١٢٥ مليار متر مكعب . . وسيكون السد — يارمسيس الثانى — مصدراً للوقود الرخيص؛ فلقد زود بمحطات لتوليد الكهربا تنتج نحو ستة مليارات من الكيلوات . هذا؛ نحن يارمسيس الثانى . . وهذا ما فعلناه استمراراً للخلود ، ولكنه خلود الشعب لاخلود الفرد . . وكما قابلت يا ملكنا الكبير من اليهود من مؤامرات ومكائد فأخرجتهم إلى غير رجعة . . قابلنا نحن وما زلنا نقابل من الصهيونية والاستعمار مؤامرات ومكائد وعقبات فى سبيل عملنا هذا الكبير . . ويالها من عقبات . .

أى رمسيس الثانى . . أكاد أراك أمامى مجسماً ، وأكاد أسمع صوتك وأنت تهز رأسك آسفاً تستحثنى على أن أحكى ما فعلوه وما فعلنا . . خيالى قادر على أن يبعثك أمام بصيرتى حياً وبشراً سوياً ، وسأحكى لك باختصار . .

● دُرست إمكانيات قيام السد العالى وتقرر أن يقوم البنك الدولى بالتنفيذ مشترطاً مساعدة أمريكا وبريطانيا وقبلنا بحسن النية .

● عندما وضحت النيات والإيديولوجيات الخبيثة ، رفضنا ، فرفضوا التمويل ، وانسحبوا فى ٢٢ يوليو عام ١٩٥٦ .

● استمراراً لسياستك فى العزة والتحرر يارمسيس استرددنا قنالنا فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ ، لنبنى بأموالها السد العالى وكانت نهباً لهم .

● تآمروا علينا ، ثم حاربونا فى ٢٩ أكتوبر ١٩٦٥ ولكننا انتصرنا . . انتصر شعبنا مع قادته كما انتصر شعبنا قديماً معك منذ قرابة الثلاثة آلاف من السنين .

● وفى ١٥ مايوم ١٩٦٤ ، تحول النيل الخالد عن مجراه الذى عهدته به يارمسيس . . وهناك قريباً من معبدك «أبو سمبل» . . وظل النيل كما كان معلماً ومانحاً لشعب مصر ، معطاء جزيل العطاء . . وظل شعب النيل منبع العزم والصبر والتحدى والتصميم . . وغنى لعمله الكبير هناك على مشارف مجدك القديم غنوته الشهيرة . . « قلنا هانبنى . . وآدى احنا بنينا السد العالى . . يا استعمار بنيناه بايدينا السد العالى » وكأنما يقول لهم موتوا بغيظكم . .

أما سمعت أحفادك يارمسيس وهم يغنون ويرقصون ؟!

أما سمعت أحفادك يا رمسيس وهم يحطمون الصخور ويحيلون الليل نهاراً، بعد أن أطلقت إشارة بدء العمل فى بناء السد العالى، تحقيقاً لإرادة البناء وتوكيداً لفكرة البقاء فى ٩ يناير عام ١٩٥٩ .

أكاد أسمعك يارمسيس وأكاد أراك تقول من بين شفتين مبتسمتين . نعم نعم، رأيتكم وباركتكم .. من أجل هذا يارمسيس ، لم ننس جميلك على الدنيا ولم نهمل آثارك الباقية تحكى للزمن عن الحضارة والمجد . . إنها أيضاً حضارتنا ومجدنا . . ومستقبلنا ، فالمستقبل جذوره فى الماضى ، ونحن من ماضينا نستمد القوة لحاضرنا . . ولسوف تشرق الشمس ثانية يارمسيس .. ولم نقبل على أنفسنا، نحن الجيل الحاضر والذى يكافح من أجل مستقبله ، أن نتحمل أمام التاريخ مسئولية زوال آثارك الرائعة التى تعد درة فى جبين الزمن ورائعة من روائع الفن الخالد استطعت أنت بها أن تتحدى الزمن، كل هذه الآلاف من السنين . وإذا كان فنانوك العظام قد صاغوها بما لديهم من ملكات خلاقة وإيمان بالفن عميق ، فما أحرانا أن نصونها بكل ما أوتينا من قوة وقدرة .

وتعود نظراتك الثاقبة تنظر إلى عبر آلاف السنين وقد تخيلتك بشراً سوياً ، تسألنى وكيف ؟ وماذا فعلتم ؟ . وإليك القصة . .

● حين تبلورت فى الأذهان تماماً فكرة إقامة السد العالى ، كان

غرق معبدى « أبو سمبل » وبقية آثار النوبة يتجسم أمام العيون والعقول كواقع حزين . . ونخشى المخلصون أن يلقى هذا المعبد الصخرى العظيم مصيرقصرأنس الوجود . . إنك يارمسيس بعبقرية فنك المتمثلة فى الضخامة الشاهقة ، وفى النحت العملاق قدنثرت أرض الوادى من النوبة حتى البدرشين ، بآثارلك أقيمت يوم أقيمت ، لتفرض وجودها بفن عظيم مميز .. فن الرعامسة الذى كان من فنون المرحلة المتأخرة فى تاريخ مصر القديم . . ولكن معبدك فى «أبو سمبل» كان فريداً والحق يقال . . فلقد حشدت هذا المعبد بالنقوش التى تمثل معاركك وحروبك وطموحك وارتفاع تطلعاتك ، التى انتهت بأن أعلنت نفسك إلها ومجدت ذاتك إلى جانب الآلهة التى أقمت لها هذا المعبد الكبير ، حور أختى رب المشرق ، وآمون إله طيبة ، وبتاح إله العلم والمعرفة . . ولم تنس زوجتك الجميلة نفرتارى ، فأقمت لها على مقربة وفى نفس الجبل معبداً كان أكثر رقة وإيحاء بالسلام ، تظله الإلهة حتحور ربة الخصب والنماء ، يعلو هامتها تاج قرص الشمس .. كل تلك الروائع ، كيف لانحزن ونألم ونحن نتخيلها تغمرها المياه ، فتغمر بعض معالم وجه مصر .

● فى سنة ١٩٥٥ ذهبت بعثة من مصلحة الآثار إلى بلاد النوبة ، للنظر فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الآثار الخالدة فى هذه البلاد قبل تنفيذ مشروع السد العالى . . وارتفعت الصيحة تنادى بالإنقاذ وتشير به كضرورة لمعبد «أبوسمبل» فهو مثل الكولزيون لروما ، والأكروبول لليونان . إنه مثلهما تراث مشترك للإنسانية . وما بالعسير على عبقرية الهندسة والعلم ،

أن تجد السبيل للإبقاء على آثار الفن، آثارك يارمسيس ، إلى جانب مشروعاتنا الصناعية . . وكان الأمل والهدف هو التوفيق بين غرض نافع للإنسان (السد العالى) وبين هدف من أهداف الروح عندما يرتفع الإنسان عن حاجاته المادية، وتشرئب روحه إلى ما وراء المادة من فكر وعلم وفن جميل . .

● كانت عملية الإنقاذ — أيها الملك — فوق طاقة أمة تعمل لحاضرها ومستقبلها . ولكنك بما خلقت من آيات الفن أصبحت ملكاً للإنسانية جمعاء . . وانطلاقاً من هذا المبدأ لم نتردد أن نخرج بمشكلة إنقاذ آثار النوبة من محيطنا القومى إلى المحيط الدولى، وأن نجعل منها مسئولية عالمية يشارك فى حملها، حماة التراث وحماة الفنون وسدنة الحضارة وحفظة التاريخ فى كل بلد من بلاد العالم المتمدن. ووجهت مصر نداء يخاطب الضمير العالمى للعمل على إنقاذ آثار النوبة ، جاء فيه : « يوم يكتب لهذا المشروع النجاح، سيكون لكم ولكل جهد يبذل ولكل عقل فكر، سيكون لكل حكومة أو هيئة عامة أو خاصة أو مؤسسة أو شخص، فضل فى العمل على تأييد الثقة فى إمكان تعاون إنسانى مثمر بين أمم الأرض جميعاً » .

● ثم ، فى ٨ مارس ١٩٥٩ كان إجماع العالم المتحضر ممثلا فى منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة — اليونسكو — على البدء فى الحملة الدولية لإنقاذ تراث النوبة. . إذ لم تكن آثار النوبة هى معابدك الستة فيها، ومن أهمها «معبدا أبوسمبل» وإنما كانت عدداً عظيماً من

المعابد والجبانات الأثرية والآثار التاريخية المطمورة التى لم تستخرجها بعد يد الإنسان، وكذلك الآثار الإنثروبولوجية من عصر ما قبل التاريخ، والحفريات الجيولوجية التى لم تكن قد درست دراسة وافية فى الماضى . . ثم فوجئ من يهمهم الأمر بأنها تغرق نهائياً وإلى الأبد بعد سنوات قليلة من بناء السد العالى تحت مياه بحيرة ناصر . ومن بين الآثار الإنسانية فى المنطقة كذلك كانت معابد فيلة وكلابشة ودندور وجرف حسين وأبو عودة وقرطاسى ووادى السبوع وبيت الوالى والمحرقة والدر والدكة وعمدا ومقاصير أبريم وبعض الكنائس الأثرية ، كما كانت هناك مقبرة بنوت.. ولكن بطبيعة الحال كان« معبدا أبوسمبل» هما أضخم الآثار ، وبالتالى أعقدها فى عمليات الإنقاذ . .

● وبدأت الدراسات ، وبدأ معها الفكر الهندسى يقدم وسائله وأدواته إلى أن استقر الرأى على الأخذ بمشروع نقل المعبدين إلى قمة الجبل الذى أمرت مهندسيك وفنانيك يارمسيس يوماً مضى منذ بضعة آلاف سنة، أن ينحتوا لك وزوجك معبدين فيهما . . على أن ينقلا بعد تقطيعهما إلى أجزاء تجاوزت الألف قطعة. واستخدم العلم — يامليكنا — فى القرن العشرين بعد الميلاد — أقصى إمكانياته لحماية المعبدين عند تقطيع صخور الجبل الذى يعلو المعبدين . وغطيت واجهة كل معبد بالرمال وأقيم نفق اتصال من الألمنيوم يؤدى من الخارج إلى داخل كل معبد . . كذلك، يارمسيس — تعاون العلم الهندسى مع العلم الأثرى على الاحتفاظ لكل قطعة بمعالمها

وترقيمها حتى يسهل إعادتها إلى موقعها الطبيعى من البناء فوق الجبل . خطة قد تبدو بسيطة أمام همتكم العاتية . . همة من بنوا الأهرامات ونحتوا فى الصخر الجلمود لهم معابد ومغارات . . وهى إن تكن بسيطة حقاً أمام التقدم التكنولوجى الهائل الذى بلغه إنسان القرن العشرين ، فكيف كانت تبدو منذ آلاف السنين ؟ ! الخطة، كانت عبارة عن نقل جبلين ستغمرهما المياه إلى قمة جبلين بارتفاع ٦٥ متراً، ستقف المياه عند سفحهما .

● كان العمل الذى انتهى قبل نهاية عام ١٩٦٥ عبارة عن تقطيع أحجار كل من الجبلين اللذين أمرت يارمسيس مهندسيك أن يحفروا معبدك ومعبد زوجك كلاهما كمغارة رهيبة داخل الجبلين المتجاورين فى «أبوسمبل» . وبدأ العمل بقطع أحجار كل من الجبلين ابتداء من القمة حتى نحو ٨٠ سنتيمتراً من سقفى المعبدين .

وبعد إزاحة الجبلين عن سطحى المعبدين بدأ العمل الدقيق، وهو نشر الأحجار المنقوشة والتماثيل والأعمدة فى كتل منتظمة تزن كل منها ما يتراوح بين ١٠ و ٣٠ طناً .

● ولقد تم نقل معبدك الكبير يارمسيس إلى مكانه الجديد فى يناير ١٩٦٦ ونقل المعبد الصغير فى مارس ١٩٦٦ .

● فى الموقع الجديد، الذى اختاره لك القدر استجابة لرغبتك فى

الخلود أيها الملك العظيم ، كان هناك في الوقت نفسه يجرى العمل لتسوية الأرضية التى أعدت لاستقبالك من جديد ، ثم فرغ المهندسون وعلماء الآثار، من تركيب المعبدين من جديد فى نوفبر ١٩٦٦ . بمعنى أن الهدم تجاوز عامين والبناء تم فى أقل من عام .

● بعد ذلك يارمسيس، وتلبية لرغبة ألحت عليك فى قديم الزمان، وفى إبان عزك ومجدك أن يكون معبدك كمغارة رهيبة محفورة فى بطن جبل صنديد لتبقى شاهدة على عظمتك وروعة فنك . . تلبية لتلك الرغبة وتحقيقاً لها، بقيت مهمة بناء جبل من فوق كل معبد منقول حتى ليبدو المعبدان وكأنهما منحوتان داخل الجبل كما كانا على عهدك . وكان لا بد من إقامة قبة خرسانية ضخمة على سقف كل معبد ليبنى فوقها الجبل المصنوع ؛ ولا نريد خداعك يارمسيس وإنما هو تحقيق لرغبتك بقدر الطاقة . وهكذا بدأ العمل فى سبتمبر ١٩٦٦ فى بناء قبتين خرسانيتين . . قبة كبيرة متوسط قطرها نحو ٢٠ متراً لمعبدك. وأخرى بنصف المقاييس لمعبد محبوبتك الجميلة أيضاً (نفرتارى) ؛ ثم بنى الجبلان فوق القبتين ؛ ثم بنيت الصخور ووضعت بشكل طبيعى استغرق سنتين أخريين من العمل الدائب ، عاد بعدهما المعبدان كما كانا فى القديم . . وهما الآن يقفان — كما أردت لهما — فى مواجهة المشرق يستقبلان أشعة الشروق كل صباح، وفى ساعات معلومات وتواريخ محددة تنفذ أشعة الشروق إلى أعماقهما، فتضىء وجوه الآلهة الجالسة فى قدس الأقداس . .

أى رمسيس الثانى العظيم . . ماذا تقول لو أنك بعثت حياً عن أحفاد لك قدسوا واجبهم نحو تراث الآباء والأجداد، بمثل ما قدسوا واجبهم نحو حقوق الأبناء والأحفاد . .

أى رمسيس الثانى العظيم . . ماذا تقول لو أنك بعثت حياً، عن أحفاد لك لم ينسوا واجبهم نحو الفن والتاريخ والعقيدة الدينية والأمجاد التى غيرت فن الإنسانية كلها وتاريخها وأمجاد ماضيها العريق ، لم ينسوا ذلك قط فى وسط سباقهم مع الزمن وفى وسط اللهفة الملهوفة على مصير الأحفاد ، من ولدوا منهم ومن سيولدون .

أى رمسيس الثانى العظيم . . فى كم من السنين بنيت معبدك ، وكم من الأموال الطائلة تكلف ذلك ؟ . . ولكن لا . . ماذا يهمنا اليوم من أمر ذلك . لعل الأهم أن نحكى لك نحن أن قطع معبدى « أبوسمبل » ونقلهما وإعادة بنائهما ، قد تكلف نحو ٣٦ مليون دولار . دفعت مصر بعملتها المحلية ، ثلثها . ودفعت الولايات المتحدة ثلثها الآخر . وساهمت دول عديدة ، وهيئات شتى وأفراد من رعاة الفنون فى العالم بثلثها الثالث . وقد بدأت أعمال الإنقاذ الفعلية فى ١٦ نوفمبر ١٩٦٣ وانتهت رسمياً فى ٢٢ سبتمبر ١٩٦٨ . . أى أنها استغرقت خمس سنوات . .

وهناك فوق «أبو سمبل » كان احتفال بانتهاء العمل .. وكانت مصر عند جلالها فى ذلك الموعد الذى حدده القدر، والذى تلاقى فيه على

ربوة معبدى « أبو سمبل » ممثلو الهيئات الدولية والمنظمات الثقافية وحكومات عديدة من دول العالم، ليشهدوا معجزة من معجزات الحضارة الإنسانية القديمة تضافرت على إنقاذها حضارة الإنسان الحديث وعلمه وتقدمه التكنولوجى . .

أى رمسيس الثانى العظيم . . أليس موعداً مع القدر حقاً ، أن يعاد بناء أو نقل معبديك من بطن جبل إلى قمة جبل نقلاً واعيا كاملاً بحيث لم يتغير منهما أرنبة أنف ولاعقلة أصبع . . انتقلا كاملين هما والإطار المحيط بهما . . أما الجو من حولهما فقد انفسح واتسع وغدا أروح نفساً ، كما انكشف منظر الضفة الشرقية من النهر إلى أبعد مما اعتاده زوار معبدك من قبل يارمسيس.

أى رمسيس الثانى العظيم . . هل كنت تحلم بكل هذا الخلود . . وكل هذه الشهرة . . إنك ومعبديك حقا ، كنتم على موعد مع القدر . .

ملحق أول :

المسيرة بالأرقام :

●● تكون الصخر :

الصخر الذى اتخذ فيه رمسيس الثانى معبدى «أبو سمبل» على شكل مغارتين رهيبتين تضربان فى بطن الجبل ، هو الصخر الرملى النوبى . وذاك الجبل والصخر ترسب أو تكون فى عصر من العصور الجيولوجية يسمى العصر الطباشيرى (Cretaceous) وهو عصر يقدر له الجيولوجيون استدامة زمنية على الأرض تبلغ ٧٠ مليون سنة تقريباً . أما ما يفصل بين زماننا هذا والزمان الذى تكون فيه ذاك الصخر أو الحجر الرملى النوبى ، فهو قرابة المائة مليون سنة تقريباً ، بحسب تقديرات « ب . ماربل » عام ١٩٥٠ .

●● وجرى النهر :

النهر ، هو نهر النيل . وكان بداية جريانه فى شكله الحالى بعد أن اتحدت الأنظمة النهرية المختلفة ، وأصبح الكل فى واحد ، فى عهد جيولوجى يسمى بالعهد البلايوسينى (Pliocene) أو العهد الحديث المتأخر ، ولقد قدرت استدامة ذاك العهد بنحو ١١ مليون سنة . أما ما يفصل بين زماننا هذا ، والزمان الذى اتخذ فيه النهر سبيله المعروف لنا اليوم ، فهو قرابة العشرة ملايين سنة .

• ظهرت البشرية فى أقدم أشكالها البدائية كما يقول بذلك العلم، فى العهد البليستوسينى أو العهد الأحدث (Pleistocene) منذ قرابة المليون سنة .

• ظهر الإنسان كما نعرفه اليوم ، منذ قرابة نصف مليون سنة ، كما يقول بذلك العلم الإنسانى أيضاً .

• هاجر الإنسان إلى النيل وترك آثاره، منذ قرابة المئة ألف عام .

• اكتشف الإنسان الزراعة على ضفاف النيل فى بلاد النوبة المصرية ، منذ قرابة سبعة آلاف سنة .

• بدأ الإنسان يعرف الكتابة ويسجل نقوشه على الحجر، منذ قرابة ستة آلاف سنة .

•• ونطق الحجر:

الحجر ، هو حجر رشيد . ولقد اكتشفه جنود الحملة الفرنسية على مصر فى منطقة رشيد فى فترة الحكم الفرنسى لمصر الذى بدأ فى عام ١٧٩٨ .

واستطاع « شمبليون » العالم الأثرى الفرنسى ، فك رموزه وكتاباته الهيروغليفية فى حوالى عام ١٨٤٠ . وبذلك عرفت أسرار الحضارة الفرعونية وكشف عن آثارها ، ومن بينها آثار رمسيس الثانى ومعبده فى « أبو سمبل » الذى بنى منذ ثلاثة آلاف سنة تقريباً .

●● ثم ، موعد مع القدر :

بدىء فى بناء السد العالى على نهر النيل بالقرب من أسوان؛ بعد أن تحول النهر عن مجراه الذى عهده رمسيس فى ١٥ مايو ١٩٦٤ .

نتيجة لهذا العمل الجبار . . تكونت بحيرة ناصر وغمرت كل بلاد النوبة، بعد إتمام السد فى عام ١٩٦٩ .

حفاظاً على آثار بلاد النوبة تم إنقاذها ، واحتفل بنقل معبدى «أبو سمبل» فى ٢١ سبتمبر ١٩٦٨ .

* * *

ملحق ثان :

جدول للعصور والحقب الجيولوجية يبين المدى الذى قدره العلماء لطول كل عصر والاستدامة الزمنية له على الأرض ، ثم عدد ملايين السنين التى قدرت فاصلاً ما بين زماننا هذا وبين كل من تلك العصور طبقاً للتقديرات التقريبية التى أوردها «ج . ب. ماربل » فى نوفمبر ١٩٥٠.

وحتى اليوم ، ما زالت تتأرجح الأرقام ما بين تقدير وتقدير لطول تلك العصور ، ثم لعمر القشرة الأرضية ككل . . ومن أحدث التقديرات ، ذلك الذى يبلغها من العمر قرابة ٣٢٥٠ مليون سنة .

ولا يخفى على أحد أنها اجتهادات بشر ، وتطورات علم إنسانى ، ومع كل دفعة من تطور ، تقدير جديد . وفى النهاية يبقى العالم ، هو الله وحده. ولكنه برغم علمه الأكبر ، يحضنا على العلم والعمل . .

* * *

العصر	منذ ملايين السنين الماضية بالتقريب	الطول الزمني بملايين السنين للعصر ، أو استدامته على الأرض بالتقريب
البليستوسيني	من الآن وإلى واحد مليون سنة	واحد مليون سنة
البلايوسيني	» ١ » ١٢ » »	١١ » »
الميوسيني	» ١٢ » ٢٨ » »	١٦ » »
الأوليجوسيني	» ٢٨ » ٤٠ » »	١٢ » »
الايوسيني	» ٤٠ » ٦٠ » »	٢٠ » »
الطباشيري	» ٦٠ » ١٣٠ » »	٧٠ » »
الجوري	» ١٣٠ » ١٥٥ » »	٢٥ » »
الثلاثي أو (الترياسي)	» ١٥٥ » ١٨٥ » »	٣٠ » »
البرمي	» ١٨٥ » ٢١٠ » »	٢٥ » »
الكربوني	» ٢١٠ » ٢٦٥ » »	٥٥ » »
الديفوني	» ٢٦٥ » ٣٢٠ » »	٥٥ » »
السيلوري	» ٣٢٠ » ٣٦٠ » »	٤٠ » »
الأوردوفيسي	» ٣٦٠ » ٤٤٠ » »	٨٠ » »
الكمبري	» ٤٤٠ » ٥٢٠ » »	٨٠ » »
ماقبل الكمبري	» ٥٢٠ » ٢١٠٠ » »	١٥٠٠ » »

المراجع العربية

١ ـ آن تيرى هوايت ، ترجمة محمد عبد الفتاح إبراهيم ، مراجعة د . محمد صابر سليم ١٩٦٤ : الأنهار العظيمة فى العالم .

٢ ـ د . حسين فوزى ، (مقال بجريدة الأهرام) ، ١٩٦٨/١٠/٤ : عيد من أعياد الحضارة .

٣ ـ د . عبد العظيم أنيس ، ١٩٦٧ : العلم والحضارة .

٤ ـ كمال الملاخ ، سبتمبر وأكتوبر ، ١٩٦٨ : (مقالات بجريدة الأهرام عن رمسيس الثانى وآثار النوبة) .

٥ ـ ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، ١٩٥٠ : قصة الحضارة ، الجزء الثانى ـ الشرق الأوسط .

٦ ـ د . لويس عوض ، (مقال بجريدة الأهرام) ١٩٦٨/١٠/٤ : ملحمة الصخور والمياه .

٧ ـ د . محمد محمود الصياد، ١٩٦٢ : النيل الخالد .

٨ ـ محمد فتحى عوض الله ، ١٩٦٧ : قصة الحديد فى مصر .

٩ ـ محمد فتحى عوض الله، ١٩٦٨ : قصة الفحم فى مصر .

١٠ ـ هامرتون ، أ . ، ترجمة نخبة من أساتذة الجامعات : تاريخ العالم .

* * *

المراجع الأجنبية

(11) Amin, M.S., 1959, Summary report of the results of oil exploration in the Western Desert, Egypt : Cairo, P.G.A.

(12) Attia, M.I., 1955, Topography, geology and ironore deposits of the district east of Aswan, Cairo, Egypt, G.S.

(13) Ball, J., 1939, Contributions to the geology of Egypt, E.S.D.

(14) Barron, T., 1907, The topography and geology of the Peninsula of Sinai (W.P.), Cairo, E.G.S.

(15) Hume, W.F., 1925-1927, Geology of Egypt, vol. I and II, Cairo, Egypt.

(16) Kotb, H.: Ghaly, E.L., and Mohamed Fathi Awadallah, 1965, Ch. Studies on Ayun Musa coal, G.S. No. 38.

(17) Pomeyrol, R., 1968, Nubian Sandstone, The Ammerican Association of Petroleum Geologists Bulletin, vol. 52, No. 4 (April, 1968).

(18) Sadek, A., 1926, The geology and geography of the district between G. Ataqa and El-Galala El-Bahariya (Gulf of Suez) R.G.S.

(19) Said, R., 1962, The geology of Egypt: New York, Elsevirer Publishing Co.

(20) Shukri, N.M. and R. Said, 1946, Contribution to the geology of the Nubian Sandstone, Part II, Mineral analysis : Bull. Inst. Egypt.

(21) Shukri, N.M., 1945, Geology of the Nubian Sandstone, Nature vol. 156, No. 3952.

(22) Youssef, M.I., 1962, Upper Cretaceous rocks in Kossair Area : Bull. Inst. desert Egypte.

(23) Zeuner, F.E. 1958, Dating the past — an introduction to geology.

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧١/٣٩٦٢

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١.

أبو سمبل بين الصخر والصحراء

مسيرة فى الزمان عبر قرابة مائة مليون سنة – فمن هناك ، منذ مائة مليون سنة ، تبدأ القصة الحقيقية لمبدى أبو سمبل بين الصخر والإنسان . وكيف تكون القصة الحقيقية إذا لم نعرف قصة الصخر والجبل الذى نحت فيه المعبد . . فى ذلك الزمان البعيد جداً ، وفى عصر جيولوجى يسمى العصر الطباشيرى . . تكونت الأحجار الرملية التى سميت باسم بلاد النوبة . . فى زمان لم تكن فيه نيل ولا إنسان . . ثم تلا ذلك فى رحلة الزمان ، جريان النهر . . ثم مجيء الإنسان . . ثم تطور الإنسان ، وتطورت حضارته على ضفاف نهر النيل ، فكان الشعب المصرى . . وكان للشعب ملوك . . ومن بين الملوك ، رمسيس الثانى وزوجته . . وكان أيضاً معبداهما فى النوبة منذ قرابة الثلاثة آلاف سنة . ثم يكون لهما مع القدر موعد حيث أقامت إرادة الإنسان المصرى الحديث سداً عالياً على النهر . وحفاظاً على الحضارة العريقة نقلت معابد أبوسمبل من مكانها ، مخافة أن تغمرها مياه النهر المختزنة ، ولكى تبقى لحضارة الإنسان رمزاً . . .

تلك هى عناصر القصة التى يحكيها هذا الكتاب .

